تجديد الخطاب الدينى
بين
العشوائية والمنهجية

تأليف
الدكتور/ محمد شامة

الناشر
مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
محمول: ٠١١١٣٣٧٥٣٧٥

obeikandl.com

الطبعـــة الأولى

١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ، وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه ، أوتخزينه على أجهزة استرجاع ، أو استرداد إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله بأى وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من المؤلف .

All right reserved. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, elect-ronic, mechanical, photocopying, recording or otherweise, without the prior written permis-sion of the author.

رقم الإيداع: ٢٧٢٦٧ / ٢٠١٥

الترقيم الدولى: 978-977-449-330-5

يطلب من :

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية عابدين

ت : ٢٣٩١٧٤٧٠

مكتبة الإيمان

٤ شارع سوكارنو – العجوزة

ت : ٣٣٤٥٢٣٠٢

obeikandl.com

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى
هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾

obeikandl.com

obeikandl.com

إلى روحى أبى وأمى:

عبد الغنى مرسى شامة

ولبيبة حامد ندا

﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التغيير عنصر أساسى فى منظومة الحياة بكل أنواعها، سواء كانت بشرية أو حيوانية، كما أنه موجود أيضاً فى بعض عناصر الجمادات، وإن كان لا يتحقق المرء من ذلك إلا بواسطة آلات بحثية خاصة، فهو - أى التغيير — من سنن الكائنات جميعها، ولازم من لوازم الوجود على هذه الأرض، لا ينكره إلا المتمسكون بمنطق النصوص التراثية، ولا يعترف به من حُرِم نعمة الإبداع الفكرى، فكرر ما حفظه عن السابقين، وردد مقولات قوم عاشوا فى زمن لم تُتَح لهم فيه الظروف التى تمكنهم من التفكير فيما وراء الظواهر المرئية، ولم يسمح لهم تكوينهم الثقافى بالغوص فيما وراء المحسوسات، ولم تدفعهم بيئتهم إلى تحليل الظواهر المشاهدة للكشف عما وراءها، والإبداع فيما حولها، والابتكار فيما يتعلق بها.

فإذا لم تدرك الأمة هذه الظاهرة - ظاهرة التغيير والتطوير -، وتحرص على التعامل مع معطياتها فى جميع مجالات الحياة: المادية، والمعنوية، والثقافية، والدينية أيضاً، تجمدت أوصالها ونضبت منابع حياتها، فلا تستطيع مجاراة الحركة المادية المتغيرة، ولا تعى ما يجب عليها عمله لزيادة إنتاجها، حتى تلبى مطالب أفرادها، ولا تعى ما يجب عليها عمله، حتى تتغلب على عجزها الذى يعيق حركة تقدمها فى مجال البحث العلمى لمواءمة ظروفها مع المتغيرات السريعة على الساحة الدولية، وبالتالى فهى لا تدرك أهمية تطور معالم الفكر وتغيير أدواته، ولا تحس بمدى تخلفها الثقافى والفكرى؛ لأنها تردد صباح مساء ما أنتجه السابقون، وتكتفى بشقشقات ألفاظه، وتدوير معانيه، غير واعية بما يدور حولها

من طفرات – بل ثورات – ثقافية علمية حولها، فإذا ما دُعِيَ أفرادها إلى الخروج من شرنقة الماضى، والاطلاع على ما يُستَجَد من أفكار ومعلومات، رددوا المقولة القديمة بصوت عالٍ: " ليس فى الإمكان أبدع مما كان "، وهى مقولة أطفأت نور الفكر الناضج، وقضت على كل ما يظهر على الساحة من ومضات إبداعية، تنير الطريق لأبناء الأمة ليلحقوا بركب الحضارة الحديثة، وتلك هى آفة التخلف فى المجتمع الإسلامى، وجرثومة تنخر فى الهياكل الفكرية المعاصرة، وآلة باترة لكل ما ينمو على الساحة من أفكارٍ جديدة، وتصورات خلاقة، وحلول مبتكرة لمشاكل المجتمع المعاصر.(١)

هذا هو السبب الذى أدى إلى التخلف فى العالم الإسلامى، ولن يخرج منه إلا إذ ا أدرك روح العصر واتبع الأساليب الحديثة التى توصله إلى اللحاق بركب التقدم الحضارى، وذلك ما سنبينه فى هذا البحث.

محمد عبدالغنى شامة

(١) المراغى: محمد مصطفى: الاجتهاد – دراسة وتحقيق: محمد عمارة صـــ ١٧١

ركائز التقدم والرقى

حينما أدرك المسلمون فى مستهل التاريخ الإسلامى هذه الظاهرة - ظاهرة التغير والتطوير فى مناحى الحياة المختلفة — وتصرفوا بمقتضاها، أبدعوا وابتكروا فى جميع مجالات الحياة؛ فبحثوا فى كل المجالات: كونية، وطبيعية، مادية وروحية. فسبروا أغوار الكون، وغاصوا فى باطن الأرض، وتعمقوا فى ثنايا النفس البشرية فاكتشفوا أمراضها، كما تناولت أبحاثهم ما يعترى الجسم من علل وأسقام، فعملوا على اكتشاف ما يداويها..... وغير ذلك الكثير من الأبحاث التى تناولها علماء الإسلام فى دراستهم. دفعهم إلى ذلك حث الإسلام على العلم، وفهمهم للنصوص الإسلامية فهماً صحيحاً، تلك التى تكفل حرية البحث، وتدعو إلى الإبداع والابتكار، فقامت حضارة إسلامية على دعامتين: مادية وروحية، وبذلك اختلفت عما سبقها - وما لحقها فى الغالب الأعم — من حضارات ارتكزت على دعامة واحدة: إما مادية خالصة، أو روحية مغرقة فى الخيال، وذلك عوار كبير فى منظومة الحياة الإنسانية؛ لأن الحضارة المادية تغيب عنها القيم التى تنظم حياة الفرد وتنسق العلاقة بينه وبين الآخر، والحضارة الروحية تغرق فى بحار الأوهام والخرافات، فلا يستطيع المرء فى ظلها إنتاج ما يحتاج إليه، ولا تدبير ما تتطلبه الحياة البشرية.

ولكن..... وآهٍ من لكن وما يأتى بعدها.... ولكن عندما انحدر الفكر، وتلوثت منابع الثقافة، جَمُدَ الذهن، فعجز عن فهم طبيعة الوجود، وفلسفة الحياة، فلم يبق على الساحة سوى أدعياء، جهلة، إدعوا أنهم يتحدثون باسم الإسلام، وهم لا يفهمون نصوص القرآن الكريم، وأصدروا فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، فحرَّموا وحلَّلوا وهم لا يعرفون ألف باء استنباط الأحكام من

النصوص الدينية، حرموا بجهلهم حرية الفكر، وأصدروا بغبائهم أحكام التكفير على كل من فكر وأبدع، وتعقبوا من لم يردد أقوال السابقين، ويتعامل مع الجديد بالنظر والبحث، وقبول ماينفع المجتمع من الابتكارات الجديدة، لأن ذلك فى نظرهم "بدعة"، لايمارسها سوى المنحرفين الضالين، وبذلك انطفأت مصابيح الحضارة الإسلامية؛ فاختفت مراكز البحث، وتوارت خلف سحب التعصب والعنف ومضات الإبداع والابتكار، مما سهل للتخلف بسط أجنحته على جنبات المجتمعات الإسلامية، فتخلفت عن ركب الحضارة الإنسانية، واقتنعت بالعيش فى الماضى، مكتفية بمد يدها إلى أصحاب الحضارة الحديثة، ليلتقطوا ما يجودون به عليهم للطفو فوق سطح الحياة. وكان ذلك من أسباب سيطرة القوى الاستعمارية على مقاليد الأمور فى الأقطار الإسلامية، بطرق وأساليب شتى: فكريًا، وثقافيًا، وإن شئت فقل "دينيًا " أيضاً.

هل يستطيع العالم الإسلامى الخروج من شرنقة التخلف التى وقع فيها عبر القرون الماضية ؟

كيف ؟

وما هى الوسيلة التى تساعده على إعادة مجده الحضارى القديم بثوب يناسب العصر ؟

إن أول ركيزة تقوم عليها الحضارة هى " **التعليم** "، وقد بيَّن القرآن الكريم ذلك بياناً واضحاً لا لبس فيه، حيث نزلت أول آية تحث على هذا الجانب المهم والأساسى فى بناء صرح حضارة أى أمة من أمم الأرض، فقال تعالى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥]

فلم تبدأ الرسالة بالنهى عن الشرك، أو الحث على العدالة، أو التنبيه على المساواة بين البشر... وغيرذلك من الأمراض الاجتماعية التى كانت منتشرة فى المجتمع المكى؛ لأن كل ذلك وغيره يختفى من المجتمع المتعلم؛ حيث يستطيع المرء المدرك بتعليمه لآفاق الحياة وعناصرها البناءة ضرورة التخلص من هذه الآفات التى تنخر فى عظام المجتمع، فتهدد كيانه وتهدم بنيانه، كما أنه - أى التعليم - العنصر الأساسى، والمحرك الفعال للتقدم فى المجالات المادية: فضائية وتكنولوجية، ولا غنى عنه فيما يتعلق بصحة الإنسان ورفاهيته.

وتأتى " **الثقافة** " فى المرتبة الثانية فى سلم رقى الأمة وتحضرها؛ فهى تهذب غرائز النفس البشرية، وتنقيها من الأنانية والعدوانية، وتخلصها من آفة الانكفاء على الذات ورفض الآخر، وتغرس فيها السلوك الحسن، بما يتضمن حب الآخر، ومساعدة الضعيف، وتقديم العون للمحتاج... وغير ذلك من الصفات الحسنة التى تدعم وحدة الأمة وتماسكها، مما يساعد على النمو والازدهار. ويتحقق ذلك كله بمقدار ازدهار الثقافة، وتنوعها، وعمق مضامينها، وإيجابيتها فى مجالات الحياة المختلفة. ولا تقتصر الثقافة على الجانب الأدبى فقط، بل تشمل أيضاً الجوانب التطبيقية والتكنولوجية التى تؤثر فى مسيرة الحياة، وتلبى متطلباتها المتعددة.

وتحتل **الحرية** المرتبة الثالثة، بل قد تتبوأ المركز الأول، إذا نظرنا إليها من جانب أنها هى التى تهيئ المناخ، وتعده للتعليم والثقافة، لكننا وضعناها فى المرتبة الثالثة من حيث أن التعليم والثقافة هما اللذان يقودان إلى معرفة أهميتها فى الحياة، وإدراك أنها أكسير الوجود، والوقود الذى يدفع حركة التقدم إلى الأمام، ويمدها بالطاقة التى تدفع دورانها إلى الاستمرار والتحلق فى آفاق النظام البشرى؛ فهى

مصدر الإبداع والابتكار فى كل مجالات الحياة بأنواعها المختلفة؛ فمن لا حرية له لا يستطيع الابتكار، ولا يقدر على اكتشاف ما فى الوجود من أسرار، فضلاً عن إضافة الجديد إلى منظومة الحياة، وخلق المناخ الذى ييسر الحياة على الإنسان، ويسهل الأمور بالتغلب على العقبات، وإيجاد الحلول لما يستجد من مشاكل، وما يعترى المجتمع – وكذلك الأفراد – من مظاهر التفكك والتصدع التى تعيق نبض حياته، وتعترض مسيرته، فتشل حركته، وتقضى على البراعم التى تمده بالحركة والنشاط؛ فبدون الحرية لا يكون هناك تعليم مثمر؛ إذ يقتصر الأمر على حفظ ما سطره السابقون، وترديده دون الإضافة إليه، أو تعديل ما لايلائم ظروف العصر، أو إضافة ما يجدد الحياة وينشطها، ويربى النشء على التفكير والإبداع، والحرص على ما ينمى شخصيتهم، حتى تكون عناصر بناءة فى صرح الحضارة، بدل أن تكون عبئًا عليها، أو أداة تدفعها إلى الوراء، فضلاً عن طمس معالمها التى كانت فى يوم ما نوراً يضيئ الطريق للمبدعين والمبتكرين.

ولا تقتصر أهمية الحرية على مجال واحد فقط، بل هى ضرورية فى جميع المجالات: المادية والمعنوية، النظرية والتطبيقية؛ فلكى تزدهر الحضارة، ويستمر التقدم، ينبغى - بل يجب – أن يتمتع الإنسان بالحرية، حتى يكون مسئولاً عما يقوم به، وما يقرره فى تخصصه، ويلتزم به فى إنتاجه؛ لأنه لا مسئولية بدون حرية، بل لا وجود للإنسان بدون حرية؛ إذ هى لازمة من لوازم الحياة الإنسانية، فضلاً عن أنها عنصر أساسى فى مجال الكشف عن أسرار الوجود، ومعرفة ما يحيط بالإنسان من ظواهر كونية، ليستخدمها ويسخرها لمنفعته، حتى تسير حياته فى الدروب والمسالك التى تضفى عليه الراحة، وتزيل عن كاهله المشقة والكدر، كما أنها الوسيلة الفعالة لضبط العلاقة مع ماحوله، ومن يتصلون به لبناء علاقة المشاركة الإيجابية بين أفراد المجتمع، فيعيشون متحابين متضامنين،

لا يعكر صفو حياتهم الاختلاف فى الرأى؛ لأن كُلًّا يحترم رأى الآخر، فلا يعتدى عليه، ولا يسفهه؛ لأنه فى ظل الحرية قد وقر فى نفسه أن لكلٍّ الحق فى إبداء رأيه، وأن حرية المرء تنتهى حيث تبدأ حرية الآخر، وأن هناك ثوابت لا يجوز نقضها؛ لأن الكل آمن بها، والتزم بها فى جميع نشاط حياته.

ولهذا قدس الإسلام الحرية، فدعا إلى كفالتها، حتى ولو أدى ذلك إلى عدم الاعتراف به ديناً، يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩]، ويقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]

فيبين الله لرسوله ﷺ فى هذه الآيات أن الإيمان متروك لحرية الإنسان، فلا ينبغى أن يمارس الإكراه لحمل الناس عليه، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الإيمان، ولكنه تركهم بحريتهم، ليكون الإيمان نابعاً من ذات الشخص نفسه، حتى يثمر إيمانه، لأن العمل لا يكون نافعاً إلا إذا فعله الإنسان وهو فى كامل حريته.

ولهذا نظر الإسلام إلى المجتمع نظرة شمولية، فهو لا يفرق بين الناس على أساس معتقداتهم، بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات، بل كفل لهم أسس العيش فى سلام واطمئنان داخل المجتمع الإسلامي، وأعطاهم حريتهم كاملة فى ممارسة بناء المجتمع، فلا زال قول عمر بن الخطاب ﷺ: " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " ناقوساً يرن فى آذان كل المجتمعات البشرية، معلناً أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية، كما أمرهم الإسلام، واستنكروا كل ما من شأنه أن يسلبها من المجتمع، لأنها أساس كيان الإنسانية، ودعامة

استقرار المجتمع على قواعد ثابتة، لا تتزعزع أمام عواصف الدهر، وتقلبات الأيام.

والركيزة الرابعة، وهى الأهم فى منظومة الحياة الإنسانية: **الدين**، فهو لازم من لوازم حياة الإنسان والمجتمعات البشرية؛ فما من جماعة بشرية كانت تعيش عبر أزمان التاريخ إلا وكان لها دين ومعبودات تتجه إليها، رغباً حيناً و رهباً حيناً آخر، لأن الرغبة والرهبة هما الطابع المميز، الذى يلازم كل دين، من أول عهد البشرية حتى عصرنا الحالى، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومن نافلة القول أن نقرر: أن الإنسان قد يكون قد عاش فترة من حياته، قصيرة أو طويلة، من غير علوم وفنون، وصناعات، ولكن لا يعرف التاريخ جماعة إنسانية عاشت بلا دين. وفى ذلك نجد فى معجم " لاروس " القرن العشرين: أن العاطفة أو الغريزة الدينية شائعة وعامة فى كل الأجناس البشرية، فقد لوحظت فى صورتها البدائية لدى أكثر الشعوب همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية.(١)

فإن أىَّ إصلاح، أو تعديل، أو تطوير فى منظومة الحياة الإنسانية لا يأخذ فى الاعتبار مسالة الدين، فإن مآله الفشل، فمن يؤيد بناء أمة على أساس متين، فليبدأ بالتثقيف الدينى، وإلا فيصير عمله هباءً منثوراً، لأن للعاطفة الدينية أثراً كبيراً وفعالاً فى توجيه الإنسان، وتطويع غرائزه، وبالتالى فهى أساس توجيهه وتهذيب سلوكه، ولذلك كان الدعاة إلى الفضيلة قديماً وحديثاً يلجئون إلى الأديان يتخذونها وسائل للإصلاح، بل إن كل دعاة المذاهب السياسية وحملة السيوف لم يجدوا بُدًّا من الرجوع إلى الأديان وصبغ دعواتهم بها، كل ذلك لأن

(١) راجع! محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه.

حياة المجتمعات لا تدين لنوع الإصلاح إلا إذا صبغ بصبغة دينية يكون قوامها الإيمان "

. وعليه فإن بداية الإصلاح هو الدين، فبه يُدْفَع الإنسان إلى التعليم والتثقيف، وتُغْرَّس فيه الفضائل، وتُقْتَلَع الرزائل، ليصبح عضواً صالحاً فى المجتمع، يحرص على القيم، ويلتزم بمكارم الأخلاق، ويدعو غيره إلى الالتزام بما يعود على الفرد بالراحة والطمأنينة، وعلى المجتمع بالتماسك والتضامن، ويتكاتف مع الآخرين فى سبيل إرساء قواعد الحرية البناءة، بحيث لا يعتدى أحد على الآخر، ولا يتكاسل عن مساعدة الضعيف والمسكين وذوى الحاجة، وبذلك يأخذ كلٌّ حقه، ويعيش كلٌّ فى رحاب مجتمع تسوده العدالة، وترفرف أجنحة الكفالة على كل فرد، فلا يقاسى أحد ألم الجوع والحرمان، ولا يفتقر أحد إلى ما يحتاج إليه، فيحيى حياة كريمة، ويعيش فى جو إنسانى، وبيئة آدمية.

فهل تتضح هذه الصورة أمام أعين من ينادى بتجديد الخطاب الدينى ؟ وهل سلك المسئولون عن الخطاب الدينى الطريق الصحيح للتجديد ؟ بل، هل وقع الاختيار على المهتمين بالدعوة، المدركين لمعطيات العصر ليقوموا بهذه المهمة ؟

* * *

تجديد الخطاب الدينى

ارتفعت الأصوات من كل جانب تنادى بتجديد الخطاب الدينى، وذلك صدى وتجاوباً مع ما صدر من أكبر رأس فى الدولة من تصريح – أو توجيه، أو أمر – بضرورة التجديد فى هذا المجال. وليس هذا غريباً على شعب لا يفكر إلا برد فعل لما يصدر إليه من أوامر، أو يجبر على ممارسته ممن يملك السلطة؛ فنادراً ما نسمع من وسائل الإعلام، بكل أنواعها، إلا رجع الصدى للأوامر العليا، وتلك هى طبيعة الشعوب المغلوب على أمرها، التى تربت وترعرعت فى ظل الدكتاتورية، التى لم تسمح لأى صوت يعلو على ما تريده وتطمح إليه؛ فبمجرد أن صرح صاحب الأمر بتجديد الخطاب الدينى إلا ورأينا الأصوات فى جميع جوانب الدولة تردد ما سمعته، وتفسره، وتعيده فى صور شتى: مقالات فى الصحف، ومناظرات فى المنتديات، وجلسات فى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.... حتى الجهات الرسمية المنوط بها هذا الأمر انتفضت من سباتها فكونت لجاناً، وعقدت مؤتمرات، وأصدرت وثائق فى هذا المجال، لدرجة أن المراقب للساحة الفكرية ظن أن هذه الدعوة جديدة، لم تطرح من قبل، ولم يتناولها المفكرون والمتخصصون فى هذا المجال إلا عندما صدر التوجيه العالى. وذلك غيرصحيح؛ فتجديد الفكر الدينى قديم قدم الدين نفسه، وبالتالى فهو مصاحب للفكر الإنسانى القائم أساساً منذ فجر الوجود الإنسانى على الدين، فلم يخل عصر من عصور التاريخ ممن ينادى بتجديد الفكر الدينى، سواء كانت هذه الدعوة من القوة بحيث احتلت مكاناً فى ذاكرة المجتمعات، أو مرت مرور الكرام، فطواها التاريخ، ونسيتها الشعوب. ومن الجدير بالذكر أن نذكر نماذج من النوع الأول ظهرت فى الماضى القريب، ولازالت الأمة تعيها وتذكرها، ومن

هذه النماذج: رفاعة الطهطاوى، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، ومحمود شلتوت، ومحمد البهى.... وغيرهم ممن قاد حركة إصلاحية فى مجال الفكر الدينى فى القرنين الماضيين. ولم تخل بداية القرن الواحد والعشرين ممن صال وجال - ولا زالوا — فى هذا المجال، وأذكر أننى كتبت الكثير فى مجال تجديد هذا الفكر، من بينها مقالان، الأول بعنوان: " **الفتوى ليست كلأً مباحاً** "، نشر فى عام ٢٠٠٣م، والثانى جاء ردًّا على مطالبة أمريكا الدول الإسلامية بتغيير المناهج الدراسية، ونصت فى هذا على حذف كل آيات الجهاد منها، وذلك عقب أحداث سبتمبر، وكان بعنوان: " **الحل إسلامى وليس أمريكيًّا** " كما نشرت كتابين فى تجديد الخطاب الدينى نشر الأول فى عام ٢٠٠٥م وكان بعنوان: " **لا لتطوير الخطاب الدينى** "، ونشر الثانى فى أوائل عام ٢٠١٤م وهو بعنوان: " **الخطاب الدينى المفترى عليه** "؛ فالتجديد حركة دائمة فى المجتمعات الدينية على مر العصور، فأحياناً تخبو، فلا يحس بها جمهور المتدينين، وأحياناً أخرى تتوهج فتصير حديث القاصى والدانى.

أصبح تجديد الخطاب الدينى حديث القاصى والدانى؛ فقد أدلى بدلوٍ فيه العالم وغير العالم، وأفتى فى مسائله مُدَّعون، لا يعرفون ألفه من بائه، فكلما فتح المرء صحيفة، إلا ووجد فيه مقالاً أو أكثر عن هذا الموضوع لأناس لا صلة لهم بالدراسات الدينية، وكلما فتح قناة، أو أدار مفتاح مذياع إلا وسمع أصواتاً، تُحَلِّل وتناقش دقائق الخطاب الدينى... حتى أصبح المتلقى، سواء كان قارئاً أو مستمعاً فى حيرة من أمره؛ يسمع - أو يقرأ — الرأى وضده، دون أن يعرف من المصدرين لهذه الآراء، على أى شيء يستندون فى آرائهم ! وبأى منطق يدلون بهذه الفتاوى والأقاويل التى لا تقوم على منهج سليم، ولا تستند إلى دليل واضح... حتى المتخصصين فى الدراسات الإسلامية، والمتحدثين باسم

المؤسسات الدينية، ركبوا موجة التصريحات الرنانة، فأعلنوا عن مؤتمرات وحلقات نقاشية لبحث هذا الموضوع، فكُتِبَت فى ذلك أبحاث، وصدرت قرارات، وأعلنت وثائق، **فماذا كانت نتيجة هذا العمل ؟**

انعقدت مؤتمرات لبحث هذا الموضوع، وخاصة فى وزارة الأوقاف، ومجمع البحوث الإسلامية، وطرحت فيها أفكار، ونوقشت تصورات، وألقيت أبحاث فى المؤتمر تحلل وضع الخطاب الدعوى، وتفصل فيما يجب عمله للنهوض بالفكر الدينى، ومحاربة التطرف والعنف المذهبى، الذى انتشر فى المجتمعات الإسلامية، وتطايرت شظاياه فى معظم أركان الكرة الأرضية.

فهل تُرْجِمَت هذه الأفكار إلى واقع ؟ وهل رأينا برنامجاً واضحاً لمواجهة هذا العنف، الذى حُمِّلَ زوراً وبهتاناً على الإسلام ؟

* * *

obeikandl.com

منهج التجديد

إذا كانت النية صادقة، والإرادة حازمة لتجديد الخطاب الديني، فيجب أن نضع منهجاً واضحاً وشاملاً لتحقيق هذا الهدف بشكل كامل فى أسرع وقت ممكن؛ فالتجديد ليس قاصراً على الخطاب الديني، بل يشمل جوانب ومجالات عدة: يشمل التعليم، والثقافة، كما يتناول الوسائل الموصلة لعناصر التجديد إلى أفراد الأمة، بحيث يعيها كل فرد، ويفهم مغزاها، بالإضافة إلى سهولة الالتزام بها، والحرص على تطبيقها، بل يعمل على نشرها بأقصى قدر ممكن بين جماهير الأمة.

التعليم: هو المحور الأول والأساسى للتجديد، فإذا نظرنا إلى وضعه فى مجتمعنا نراه منقسماً إلى قسمين، تعليم مدنى، وآخر دينى. وكان الذنب الأكبر فى هذا التقسيم إلى الاستعمار؛ حيث كان هدفه إبعاد المؤسسة الدينية – وهى الأزهر — عن تكوين عقل الأمة. ومن الجدير بالذكر أننا لا نلقى اللوم كله فى هذا التقسيم على الاستعمار، بل يتحمل الأزهر جزءاً كبيراً منه؛ حيث جمد علماؤه على ما ورثوه من الأسلاف، فلم يدركوا معطيات العصر، و لم يتجاوبوا مع ما يمليه التقدم والازدهار الحضارى، فرفضوا التجديد فى المناهج الدراسية، ورموا ما ينادى به بالزندقة حيناً وبالكفر حيناً آخر، كما حدث مع الشيخ محمد عبده حين أراد تجديد المناهج الدراسية فى الأزهر.

لقد آن الأوان لتصحيح هذا العوار، حتى لا تتشرزم الأمة فى تفكيرها ولا تنقسم انقساماً حادًّا فى ثقافتها، فتوضع مناهج تهدف إلى توحيد الاتجاه الفكرى، وإن ضم بين جنباته تنوعات فى الرؤى التى لا تؤدى إلى تطاحن، بل إلى احتكاك يولد شرارة الإبداع، ويدفع إلى توالد الأفكار وتوهجها لكى تقبل الجديد وتتعامل مع ما ينفع منه، وتقضى على ما يؤذى الأفراد ويضر بالمجتمع.

ليست هذه دعوة إلى تحويل التعليم المدنى إلى دينى؛ ذلك أن الدين يقوم على ثلاثة ركائز: العبادات، والتشريعات (الأحكام الفقهية التى تحكم سلوك الفرد وتحافظ على بنية المجتمع وسلامته)، والأخلاق[1]. ولما كانت الأخلاق – بوجه عام – متطابقة فى جميع الأديان والمذاهب الفكرية البناءة، فيجب أن يتحد منهج الأخلاق فى المدارس المدنية والمعاهد الأزهرية؛ إذ تهدف هذه المناهج إلى غرس القيم والمبادئ فى وجدان النشء، بحيث تتكون شخصيتهم على أساس تربوى سليم؛ فيتعود على الصدق فى كل سلوكه مع نفسه ومع الآخرين، وعلى الجد والاجتهاد فيما يطلب منه، وعلى الإتقان فيما يقوم به، وعلى الالتزام فيما يسند إليه، وعلى احترام الآخرين والدفاع عن حريتهم.... وغير ذلك من القيم التى تُكَوِّن إنساناً صالحاً لنفسه، ومعطاءً لمن حوله، وقادراً على الابداع والابتكار للإسهام فى بناء حضارة تواكب العصر، فلا يتخلف عن ركب الحضارة الحديثة، ولا يقف عاجزاً أمام ما يعتريه من مشكلات وأزمات، لأن المنهج الأخلاقى زوده بكل ما يحتاجه فى حياته، وغرس فيه كل ما يؤدى به إلى الإيمان

(١) المشهور أن الدين يقوم على ثلاثة ركائز: عقائد، وأخلاق، وعبادات، ويندرج تحت العبادات الطقوس الدينية (صلاة، وصوم، وزكاة، وحج، وما يتعلق بها من مظاهر الخضوع للمعبود كالالتزام بالحلال والحرام فى جميع شئون الحاة)، لكننا آثرنا فى تناولنا للموضوع أن نهمل الركيزة الأولى، وهى العقائد لسببين: الأول: أن الإيمان بمعبود – أيًّا كانت صفته – فطرى فى الإنسان، وينغرس فى وجدانه منذ مرحلة التمييز عن طريق البيئة التى ينشأ فيها، سواء كانت الوالدين، أو من يحتك به فى مراحل حياته، أما شكل المعبود وصفاته فهى أمور نظرية يكتسبها الإنسان عن طريق دراسة ما يعرف بعلم الكلام، وهو ليس بلازم لصحة العقيدة، إذ أحياناً يكون سبباً فى تشويهها وزعزعتها، وصدق من قال: " اللهم ارزقنى إيمان العوام "، أى الإيمان الذى يقوم على الفطرة، فلا يلتبس بالمناقشات الكلامية. السبب الثانى لإهمالنا تناول لموضوع ركيزة العقيدة، هو: أننا نركز على الجانب العملى، وليس الفطرى، وهو الذى يتعلق بالسلوك، لأن غاية الدين هو تنظيم السلوك، وتهذيب الطبيعة الإنسانية، وهذا ما ننشده ونركز عليه فى تجديد الخطاب الدينى.

بقيم العدالة والتكافل ومساعدة الآخرين أيًّا كان دينهم ومذهبهم، والأخذ بيد الضعفاء، فضلاً عن غرس بذور الحرية فى وجدانه، فلا يرضى بالضيم لنفسه ولا لغيره، ولا يستكين لظلم حاكم، ولا يخضع لجبروت متكبر..... وغير ذلك الكثير من المبادئ التى يحتاج إليها الإنسان فى هذا العصر - وفى كل عصر - كى يحيا حياة سعيدة، ويعيش عيشة كريمة.

ومما لاشك فيه أنه لا يوجد اختلاف بين طلاب المدارس وطلاب المعاهد الأزهرية فى احتياجهم لهذا المنج الأخلاقى، لأن أهدافه ومتطلباته واحدة، ولذلك ينبغى - بل يجب - أن يوضع منهج أخلاقى شامل وكامل لكلا النوعين من التعليم، حتى ينسجم المزاج العام للأمة، فلا تتنافر فى توجهاتها، ولا تتشاحن فى كيفية الوصول إلى أهدافها، بل تتلاقح فى الأفكار، وتتنافس فى الرؤى تحت مظلة أخلاقية واحدة.

أما ما يتعلق بالعبادات والتشريعات فيختلف المنهج الدراسى للمدارس عنه للمعاهد الأزهرية؛ إذ يقتصر منهج المدارس على تعريف التلميذ بأحكام العبادات دون الدخول فى تفصيلات فقهية، حتى يؤديها على الوجه الصحيح، وإعطائه جرعة كافية من التشريعات لتهذيب سلوكه، كى يتجنب المحرمات، ويبتعد عما يضره فى حياته، كى يعيش فى أمن وأمان وينال ثواب الله فى الآخرة.

وينقسم المنهج الدراسى للمعاهد الأزهرية فى مجال العبادات والتشريعات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما يوضع للقسم الابتدائى، ويقتصر على ما وضع للمدارس المدنية، إذ يكون الغرض منه تعريف الطالب الأزهرى بأصول العبادات وما يتعلق بها من فروع لأدائها بصورة صحيحة، وكذلك التشريعات ليعرف الحلال من

الحرام فى المسائل العامة التى يمارسها الناس فى حياتهم اليومية.

الثانى: فى المرحلة الإعدادية، يختار الطالب مذهباً من المذاهب الفقهية — ولا يقتصر الأمر على المذاهب الأربعة، بل تندرج معها المذاهب الأخرى كـ: الظاهرية، والإباضية، والجعفرية وغيرها من المذاهب الموجودة على الساحة الفكرية فى المجتمعات الإسلامية — فيدرس ما رُوِى عن مؤسسه وتلاميذه فى مسائل العبادات والتشريعات، مقتصراً على ما يتعلق بمعطيات الحياة المعاصرة.

الثالث: فى المرحلة الثانوية يركز المنهج على الآراء المناسبة للعصر من كل مذهب فى جميع أبواب الفقه من عبادات وتشريعات ومبادئ أخلاقية، وإن اقتضى الأمر مخالفة السابقين فى بعض آرائهم فلا بأس، مادام الاجتهاد فيما يخالفهم فى إطار مفهوم النص ولو بالتأويل، أو الإيقاف لانعدام وجود علة الحكم الذى توصل إليها السابقون، وذلك تأسياً بما فعله عمر ﷺ فى مسألة المؤلفة قلوبهم، وفى إيقاف حد السرقة فى عام المجاعة، فهذا العمل يرسخ مفهوم صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

أما فى المرحلة الجامعية، فيركز المنهج على القضايا المعاصرة بأسلوب يفهمه المسلم وغير المسلم، فيُطْرَح ما استجد فى المجتمعات، سواء ظهر فى بلاد الإسلام أو فى غيرها؛ لأن أبواب المعلومات فُتِحَت على مصراعيها؛ فلا يوجد قطر من أقطار الأرض بعيداً عن التأثر بالثقافة العالمية، أو بمنأى عن التعامل مع ماتبثه وسائل الإعلام المختلفة، وما تقذفة الأبحاث فى كثير من البلدان من معلومات عن الأرض وما يحيط بها، ونشأة الإنسان والكون، وتفاعل الظواهر الطبيعية مع بعضها وتأثيرها على حياة البشر. كل ذلك يحتاج إلى مصباح يضيء للمسلم طريقه فى هذا الكم الهائل من المعلومات، حتى يظل محتفظاً بدينه، مؤدياً شعائره، ملتزماً بتعاليمه فى كل مجالات الحياة، مع الانتفاع بمنتجات العلم، بأسلوب

يحافظ على كيانه، ويضمن له حياة طيبة فى ظل مجتمع متماسك مترابط، يحث الخطى فى دروب العلم والتكنولوجيا، حتى لا يتخلف عن ركب الحضارة الإنسانية.

يتعرض الإسلام لهجوم مستمر، منذ ظهوره حتى الآن، فما من ثغرة، أو شبهة، إلا ويستغلها أعداء الإسلام للنيل منه، أو لبيان أنه لا يناسب العصر، ولا يتماشى مع متطلبات ما يستجد على الساحة من تغيرات، وما يظهر فى نظم الحياة البشرية من تطورات، وما تقتضيه الحضارة الحديثة من نظم وقوانين، محت ما استقر فى الماضى من مسلمات، وقضت على ما تعارفت عليه المجتمعات البشرية من أعراف. الأمر الذى يحث علماء الدراسات الإسلامية على البحث فى بعض القضايا التى أقرها الإسلام فى المجتمع لعلل وأسباب لم تعد موجودة الآن. ومن هذه القضايا على سبيل المثال – لا الحصر –: مسألة الرق والجزية، فقد خاض المستشرقون فى القضية الأولى، مدعين أن الإسلام لم يكن موقفه من الرق واضحاً، وأن الحضارة الحديثة هى التى قضت عليه؛ فحررت الإنسان من الاسترقاق والاستعباد، وتلك خطوة تقدمية، وإجراء تفوقت به الحضارة الحديثة على الإسلام فى مجال حماية الإنسان من أخيه الإنسان؛ فساوت بينهما. استغل المستشرقون هذا الحدث فى الهجوم على الإسلام بأنه لم يلغ الرق، فلم يكن صادقاً فى ادعاء المساواة بين البشر، بل أقر وضعاً لا يليق بالإنسان، ففرق بين العبد والحر فى كثير من مجالات التعامل بين أفراد الأمة.

كان رد فعل واضعى المناهج الدراسية للمعاهد الأزهرية هو: إلغاء فصل الرق من كتب الفقه، وظنوا أنهم بذلك قد جددوا فى المناهج بما يتماشى مع متطلبات العصر. وليس هذا ردًّا على الهجوم فى هذا الموضوع، بل استسلام دون بيان ما يفند موضوعه والرد عليه. ولذلك نرى أنه يجب حذف ما يتعلق

بالرق من أحكام، لأنه لم يعد موجوداً، أما ما يتعلق بالرق كظاهرة اجتماعية فهو الذى يحتاج إلى رد يقبله العقل، ويتماشى مع منطق التبريرات والتعليلات فى مجال البحث فى الظواهر الاجتماعية، وطبقاً لذلك فإننا نرى أن الإسلام لم يؤيد الرق، فضلاً عن تقنينه والتسليم به كظاهرة اجتماعية مسلم بها دون قيود أو شروط وقواعد تحد من انتشارها.

إذن، لماذا لم يحرمها الإسلام، فيصدر قراراً بتحريم العبيد فوراً ؟ لماذا لم يدعو السادة إلى تحرير ما تحت أيديهم من عبيد وإماء ؟

لو فعل هذا لاهتز النظام الاقتصادى، ذلك أن العبيد كانوا قيمة اقتصادية؛ فهم يمثلون ثروة المالك؛ فإذا حُرِّروا بين يوم وليلة فقد كثير من الناس أموالهم، بل يمكن أن يصبح المرء الذى وضع كل ما يملك فى تجارة العبيد فقيراً لا يجد ما يقتات به، لأن كل ثروته قد ضاعت هباءً، ومن هنا لم يصدر الأمر بالتحرير لاعتبارات اقتصادية. ومن هنا فقد سلك الإسلام مسلكاً تدريجيًّا لتصفية هذه الظاهرة، إذ أغلق الباب الذى ينمى هذه الظاهرة كُلِّيَّة، فلم يعد مسموحاً استرقاق أحد من جديد[1]، ثم شَرَّع ما يصفى الموجود آنذاك تحت مظلة الاسترقاق، فأوجب على من يقترف إثماً أو يهمل فريضة تحرير رقبة، وما أكثر اقتراف الآثام وإهمال الفرائض التى توجب تحرير رقبة.

إذن، فهو قد أغلق المنبع، وفتح باب تصفية الموجود، فلو التزم المجتمع بهذه القواعد، فلا تحتاج التصفية إلى وقت طويل، ولذا يجب أن يظل فصل الرق موجوداً فى المنهج، ويقتصر فيه على توضيح هذا التصور، حتى يتسلح الطالب بما يمكنه من الرد على من يهاجم الإسلام من هذه الظاهرة. أما إذا أغفل تماماً

---

(١) فقد حث الإسلام على تحرير الأسرى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴿٤﴾ ﴾ [محمد: ٤]

من المنهج، فلن يعرف الطالب كيفية الرد على المهاجمين، بل يظن أن المسئولين قد حذفوا الفصل كلية، لأنه ليس لديهم ما يردون به على هذا الهجوم.

أتاحت وسائل الإعلام الحديثة (إنترنيت، وفيس بوك، وغيرهما مما اخترع فى عالم الاتصالات) للجماعات الدينية، ولمن نَصَّب نفسه متحدثاً باسم الإسلام، وهو لا يدرك فلسفة الإسلام فى التشريع، ولا يعى أسباب وعلل الأحكام الشرعية، نشر آراء يزعمون أنها إسلامية، وهى تشوه تعاليم الإسلام، وتصورها على أنها غير صالحة للحياة المعاصرة. ومن اللافت للنظر أن المفكرين فى المجتمعات غير الإسلامية يتلقفون هذه الآراء، ويستخدمونها لمحاربة الإسلام، كى لا ينتشر بين مواطنيهم، أو يتقبله الشباب الذين يبحثون عن أفكار تنقذهم مما هم فيه من مادية سافرة، ومن تيارات فكرية لا تلبى طموحاتهم، ولا تضمن لهم استقراراً نفسيًّا، بعيداً عن التوترات التى تهدد الجنس البشرى بالفناء، وتقضى على الأخضر واليابس على هذا الكوكب.

تقذف موجات الأثير كل يوم - بل كل لحظة — إلى آذاننا بفتاوى تدعو إلى العنف، وتغرس فى نفوس الشباب كره الآخر، بل محاولة محوه من الوجود، ظنًّا منهم - بل اعتقاداً - أن ذلك هو الجهاد فى سبيل الله، ولكى تُحارَب هذه الموجة الشاذة لابد من تفعيل ما عرضناه سابقاً للمناهج الدراسية، ونشره على العامة بوسائل وإجراءات، سوف نتحدث عنها عند عرضنا لوسائل الدعوة إلى الله، لكن ما نريد الحديث عنه هنا هو: موضوع صال وجال فيه الكتاب إثر فتوى نشرتها الجماعات الإسلامية، تلك التى تدعو إلى فرض الجزية على أهل الكتاب الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية. فقد تحدث كثير من الليبراليين فى هذا الموضوع مبينين أن ذلك أمر تجاوزه الزمن، فهو ينتمى إلى العصور الماضية قبل أن تُحَرِّرنا موجات النهضة والتنوير من هذا الفكر القديم الذى

أصبح غير صالح لهذا العصر. وقد فُهِمَ من هذا أن أحكام الإسلام مرتبطة بعصر مضى، ولذا صارت غير صالحة لهذا العصر الذى قطعت المجتمعات الإنسانية فيه شوطاً كبيراً على درب التقدم الحضارى، وكأنهم بهذا التفسير يرمون الإسلام بأنه مضاد لهذه الحضارة، وما سنته من نظم وقوانين، وما أرسته من قيم حضارية. وتلك هى موجة عنصرية تطعن فى الإسلام، وتشكك فى صلاحية تعاليمه للعصر الحاضر. وكان رد فعل المسئولين عن المناهج الدراسية فى الأزهر هو حذف ما يتعلق بأحكام الجزية من المنهج الدراسى للفقه، وكأنهم بهذا الإجراء يعدونها عورة يجب سترها حتى لايفضحنا بها أعداء الإسلام.

وهذا قصور فى الفهم؛ لأن الحذف ليس هو الطريق الصحيح للرد على ما يوجه إلى تعاليم الإسلام من سهام، أو إلى ما ينسب إليها بعدم صلاحيتها لكل زمان ومكان، أضف إلى ذلك أن الطالب الذى لايدرس هذا الموضوع فى ضوء المتطلبات العصرية، والتغيرات فى حياة الأفراد والمجتمعات، ثم يفاجأ فى أثناء عمله من يوجه له نقداً فى هذا الموضوع، فإنه لن يستطيع الرد عليه، بل سيغرز هذا الموقف فى نفسه إحباطاً وتشككاً فيما يدرسه، وقد يقوده تفكيره إلى أنه حُذِفَ من المنهج لأنه لايوجد رد على هذا النقد، وتلك حالة لاينبغى أن يحياها من يتحدث باسم الإسلام نائباً عن مؤسسة دينية رسمية. ولذلك فالواجب أن يظل موضوع الجزية فى المنهج، ثم يُبَيَّن أنها لم تكن احتقاراً لهم، أو اغتصاباً من المسلمين لأموال أهل الكتاب - اليهود والنصارى — الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى، وإنما هى تنفيذ لعقد اجتماعى، وبمقتضى هذا العقد، يقوم المسلمون بالدفاع عن الوطن فى ساحات القتال، ويدفع أهل الكتاب جزءاً من مالهم، ولا يكلف بدفع هذا المال، إلا القادر منهم مادياً. فأيهما المغبون فى هذا العقد — إن كان هناك مجال للحديث عن غبن وقع على أحدهما -، أهم المسلمون الذين

يضحون بحياتهم فى ساحات القتال، أم أهل الكتاب الذين يدفعون جزءاً بسيطاً من أموالهم، فى سبيل أن يشعروا بالطمأنينة والأمن، وهم قابعون فى ديارهم، يتمتعون بالراحة على وسائدهم اللينة، ويستطعمون غذاءهم على موائدهم العامرة بأصناف الطعام والشراب، بينما المسلمون المجاهدون فى ساحات القتال، ينامون على الثرى، ويكتوون بشظف العيش، تحت أشعة الشمس المحرقة، وزمهرير الليل القارس، ولا يشعرون براحة فى نومهم، ولا بلذة فى تناول طعامهم، كتلك التى يتمتع بها أولئك الذين يدفعون الجزية، فى مقابل إعفائهم من هذا العمل الشاق ؟؟؟؟؟

فإن عجز المسلمون عن الدفاع عنهم، فليس لهم الحق فى تحصيل هذه الجزية، وقد حدثنا التاريخ أن المسلمين ردوا الجزية لأهل الكتاب عندما عجزوا عن الدفاع عنهم[1]؛ وعليه فإذا انخرطوا فى الجيش وحملوا السلاح مع المسلمين للدفاع عن الوطن الذى يعيشون فيه - كما هو واقع اليوم — سقطت الجزية عنهم، وبناءً على ذلك، فما تردده أبواق الجماعات الدينية من وجوب تحصيل الجزية من أهل الكتاب لاوجه له، فهو لايعبر عن مفهوم هذه الفريضة فى الإسلام، فهو لغو تردده حناجر من لم يفهم فلسفة الإسلام فى التشريع، وتتناقله وسائل لاتعى أنها بذلك تحارب الإسلام؛ إذ تصوره أمام العالم بأنه سلب أموالاً بغير حق، ويعتدى على ممتلكات من يعيش بين المسلمين من أهل الأديان الأخرى، فيجب على المهتمين بوضع المناهج الدراسية بيان ذلك بصورة

(١) فقد روى أن أبا عبيدة قائد جيش المسلمين كتب إلى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جُبِى من الجزية من هذه المدن، كتب إلى الناس يقول: " إنما رددنا عليكم أموالكم، لأنه بلغنا ما جُمِعَ لنا من جموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإننا لانقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينك إن نصرنا الله..."

واضحة، حتى لاتُضَلِّل جماهير المسلمين، ولا تُؤَثِّر تلك الفتاوى على أهل الكتاب الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية، فتصيبهم بالهلع والرعب، فلا يطمئنون على أموالهم، ولايعيشون بهدوء واطمئنان فى مباشرة أعمالهم، وتلك سبة يصاب بها الإسلام من جراء هذه الفتاوى أمام العالم كله، فتنفر منه المجتمعات الإنسانية من جراء مايردده أعداء الإسلام شرحاً وتفصيلاً وتحليلاً لتلك الآراء الشاذة التى لاصلة لها بالإسلام.

ومن نافلة القول التنبيه على أنه يجب أن تتضمن المناهج الدراسية فى الجامعة كل مايظهر على الساحة من فتاوى لاصلة لها بالعصر الحاضر، لنبين للدارسين أنها صدرت من العلماء السابقين لعلل وأسباب لم تعد موجودة الآن، ولذلك فهى لاغية لعدم وجود مقتضياتها مما يثبت أن الشريعة الإسلامية ليست جامدة، بل هى مرنة تواكب ظروف العصر ومقتضيات الحال، وهذه هى فلسفة الإسلام التى توضح أنه صالح لكل زمان ومكان.

* * *

obeikandl.com

مواجهة عشوائية الخطاب الدينى

فإذا تركنا المناهج الدراسية وولينا وجهنا نحو ما يوجه لجماهير المسلمين – ولغيرهم أيضاً – من تعاليم الإسلام على لسان الدعاة وخطباء المساجد، وجدنا أنفسنا أمام سيل من الأصوات تتدفق فى مجال الخطاب الدينى من كل حدب وصوب فى المجتمع المعاصر، فتتداخل وتختلط حتى أصبح من العسير معرفة صحيحها من سقيمها، ولا يظهر غثاؤها من سمينها، الأمر الذى ألقى بظلال كثيف على روح التعاليم الإسلامية، فغابت سماحتها، وتوارت وسطيتها، وتلاشى صفاؤها، واختفت عن الإنسان البسيط بوصلة الإسلام الصحيح، فوقع فى بئر مظلم ليس له قرار، وتخبط فى أرجاء الساحة الإسلامية التى غطتها أصوات الجهلاء وأنصاف المتعلمين، تلك الأصوات المتنافرة والمتناقضة، تأخذه جماعة إلى ساحة لا يعرفها، وإلى مجال لا يتفق مع متطلبات حياته؛ وذلك بفرض قيود عليه، تدعى أنها إسلامية، لا يجد معها للحياة طعماً ولا لوجوده فى هذه الدنيا مغزى، فهى تُحَرِّم عليه طيبات هذه الحياة التى أحله الله له، وتطلب منه أن يعكف على العبادة ليلاً ونهاراً، مع أنه مضطر إلى العمل كى يكسب قوته وقوت عياله، وذلك من صميم العبادة أيضاً.

وأخرى تدفعه إلى العنف والقتال – حتى ولو كان ضد أخيه المسلم – موهمة إياه بأن ذلك هو الطريق الصحيح إلى الجنة، وأنه، إن لم يفعل ذلك، فمآله إلى جهنم وبئس المصير.

وثالثة تحاول إقناعه الالتزام بتعاليم، هى فى حقيقتها مظهرية، مدعية أنها هى الجانب الأساسى فى الإسلام، مع أن الإسلام اعتنى بالمخبر قبل المظهر، فقال رسول الله ﷺ: " **إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكنه ينظر إلى**

قلوبكم وأعمالكم "[1]، تلك الأعمال التى تُقَوِّم سلوك الإنسان، وتُهَذِّب أخلاقه، فتجعله عضواً صالحاً لنفسه، ولأهله، ولمجتمعه؛ فهو – إن وقر الإيمان فى قلبه، وعرف التعاليم الإسلامية – يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويعمل جاهداً فى بناء أمته وتشييد حضارتها، ويعامل الناس بخلق حسن؛ فهو يحترم الآخر، ويساعده على الخير، ويتسامح معه، ويعامله بأسلوب يؤدى إلى إشاعة السلام والمحبة بين الأفراد والشعوب والأمم حتى يعم الخير على هذه الأرض؛ فركيزة التعاليم الإسلامية هى الإنسان: إصلاح سريرته، وتقويم أخلاقه ليعم السلام والاطمئنان على هذه الأرض توطئة للنهوض فى جميع مجالات الحياة، وتلك مبادئ لا يراها الإنسان البسيط واضحة فى كثير من الخطاب الدينى الذى يمارسه كثير من الذين تعلو أصواتهم فى المجتمع المعاصر مدعين أنهم يتحدثون باسم الإسلام.

أما المفكرون، ومن هم على درجة عالية من الثقافة، فقد أصيبوا بالهلع من جراء ما يسمعونه من الخطاب الدينى، فتصوروا ما حدث فى أوروبا فى القرون الوسطى من سيطرة الكنيسة على الفكر، وتحريمها الإبداع فى مجالات الفكر الإنسانى، واتهامها المفكرين بالكفر والزندقة، ومحاكمتهم أمام محاكم التفتيش، مما كان من الأسباب الرئيسية فى تحرير المجتمع الأوربى من سيطرة الكنيسة، وذلك بفصل الدين عن الدولة فيما يعرف بـــــــــــــ " العلمانية ".

ينادى المفكرون فى المجتمعات الإسلامية بالسير على خطى ماحدث فى أوربا، فطالبوا بحصر الإسلام فى مجال المسجد؛ فهم يرون أن الإسلام لا يصلح لضبط وقع المجتمع السياسى والاقتصادى، لأن ذلك ينطلب حرية فى الفكر،

---

(١) صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٩٨٧ رقم ٢٥٦٤.

وإطلاق الإبداع بأوسع معانيه فى مجالات الحياة المختلفة؛ إذ لاشأن للإسلام فى تنظيم الحياة المدنية، لأن ذلك يعطلها عن المسير إلى الأمام، ويعوقها عن التقدم الذى هو شريان الحياة على المستويين: الفردى والاجتماعى. ويقوى اتجاههم، هذا ما يسمعونه من تحريم لكثير من الأنشطة الإنسانية، وتضييق على الحركة فى المجتمع، فهم يرون أن بعض المتحدثين باسم الإسلام يصدرون من الفتاوى مايشل حركة الحياة، ويمنعها من التقدم والرقى.

فمن يسمع الأصوات التى تدعى أنها تتحدث باسم الإسلام تعلن: تحريم الديمقراطية، وتأليف الأحزاب السياسية، كما تحكم على بعض المسلمين الذين يؤمنون بأركان الإيمان، ويمارسون شعائر الإسلام كما فرضها الله، بأنهم كفار، لمجرد أنهم يخالفونهم فى الرأى، أويعترضون على طريقة وأسلوب ممارستهم للخطاب الدينى.....و....و....إلخ، فمن يستمع إلى هذا وغيره من الأمور الخلافية يتمسك بما يراه من أن الإسلام لا يصلح للمجتمع المعاصر، فهو – حسب رأيهم – دين عبادة فى المسجد، وليس أسلوب حياة للمجتع.

وذلك افتراء على الخطاب الدينى من كلا الاتجاهين:

الأول: لايجوز لأحد أن يدعى أنه يتحدث باسم الإسلام، لأن للإسلام متحدثاً واحداً، ألا وهو رسول الله محمد ﷺ، فليس ما يدعيه المتطفلون على الخطاب الدينى، وما يعبرون به من أحكام إلا فهمهم للإسلام، إذا كانت لهم القدرة العلمية على فهم النصوص واستنباط الأحكام منها، فضلاً أن كثيراً منهم لا يحسن إلا ما حفظه من نصوص، وما سمعه من شيخه، فليس له القدرة – وربما يشاركه فى ذلك شيخه أيضاً – على فهم فلسفة الإسلام فى التعامل مع الحياة الإنسانية. وعليه فما يقولونه، وما يصدرونه من فتاوى، هى فى حقيقة أمرها تضر بالإسلام فى المجتمع المعاصر أكثر مما تنفعه، وينشر من الغيوم على

تعاليم الإسلام السمحة ما يحجب صلاحيتها لكل زمان ومكان عن فهم غير المسلمين فى المجتمع الدولى فتصدهم عن الإسلام، وتقيم الحواجز بينهم وبين اقترابهم من تعاليمه، كما أنها تدفع كثيراً من المسلمين إلى التمسك بأن الإسلام لا يصلح للحياة المعاصرة، فهو دين عبادة فقط، وليس قانوناً للحياة الإنسانية.

الثانى: لا يجوز للمفكرين - إن كانوا جادين فى معرفة تعاليم الإسلام وفلسفته فى الحياة — أن لا يأخذوا آراء المتطفلين على ساحة الخطاب الدينى مأخذ الجد، ويعتبرونها من صحيح الإسلام، لأن من يصرح بهذه الآراء على الساحة الإعلامية - وما أكثرهم — لا يدركون أن الإسلام لا يقف حجر عثرة أمام التقدم والرقى، ولا يعرقل مسيرة المجتمعات فى بناء الحضارة وتشييد ما يؤدى إلى بناء صرح إنسانى، قائم على الإبداع والابتكار، وفيه متسع للرأى والرأى الآخر، فحرية النقد مكفولة فى ظل الإسلام للجميع، وشرح وتأويل النصوص له أكثر من وجه، مما جعل الرؤى فى المجتمع الإسلامى من بداية قيامه حتى الآن متعددة، فهى كثيرة ومتنوعة، بحيث جاز لكل عصر وبيئة أن تختار ما يناسبها ويساعدها على التقدم. وقد بينا ذلك فى بحث بعنوان: " إسلام واحد ورؤى متعددة "، فارجع إليه فى كتابنا: " الخطاب الدينى المفترى عليه "، ليظهر لك بوضوح لا لبس فيه أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فتعاليمه لا تقف حجر عثرة فى مسيرة تقدم الأمم وازدهارها، الأمر الذى يبين لك أن ما تسمعه من أصوات تتدفق من هنا وهناك حول الشأن الإسلامى إنما هى فى كثير من مفرداتها افتراء على الخطاب الدينى الذى ينبغى أن يكون فى مصلحة الإنسان حيثما وُجِد، وفى أى عصر يعيش.

فما هى ملامح الخطاب الدينى الذى يعبر عن صحيح الإسلام ؟

ذلك ما سوف تفصله فى الصفحات التالية.

مناهج الخطاب الدينى

رسم الله كنه وطبيعة الخطاب الدينى، وبتعبير آخر: الدعوة الإسلامية، فى آية واحدة، وهى قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة مناهج غطت جميع المستويات الثقافية لجميع الناس على هذه الكرة الأرضية، على اختلاف بينهم فى العقيدة، والعادات والتقاليد، وتباين فى الفكر والثقافة، ودرجة الحضارة والتقدم. فمن يحلل هذه المناهج يرى أنها استوعبت جميع أنواع المخاطَبين، فلم يخرج عن نطاقها أى مجموعة بشرية، مهما تباعدت الأقطار، وتباينت الديار، واختلفت العصور والأزمان. فإذا استوعبها من يمارس الخطاب الدينى، ذُلِّلَت الصعاب أمامه، وتلاشت العقبات من طريقه، فصار لصوته قبولاً فى الآذان، واستحساناً فى العواطف، وإذعاناً فى العقول.

وبيان ذلك: حصرت الآية مناهج الدعوة فى ثلاث:

الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن:

فالحكمة أسلوب يتضمن عدة نقاط:

الأولى: مخاطبة غير المسلمين بالأسلوب العقلى، فلا يُستَشْهَد بآية قرآنية، ولا بحديث نبوى إلا إذا اقتضته المناقشة المنطقية، لأن غير المسلم لا يؤمن بالنصوص الإسلامية، فلا يلتزم بما يترتب عليها، ولذلك ينبغى توجيه فكره فى الخطاب إلى الآيات الكونية التى تدل على وجود الله ووحدانيته، ويساق له من النظم والتعاليم ما يبين ضرورة هذا الدين لحياة الأفراد، ولزوم تطبيق أحكامه وتعاليمه للمجتمع، إن أراد الناس حياة اجتماعية سليمة من آفات الشيخوخة البشرية، ويبعدها عن الأمراض التى تفتك بالمجتمعات كـــ: الأنانية، والعدوانية، وعبودية المادة، والغوص فى الشهوات والملذات المدمرة حتى القاع، والتردى فى

وديان الآفات التى تفتك بحياة الأفراد والمجتمعات.

الثانية: بيان أن الإنسان هو محور التعاليم الإسلامية، من حيث استقامة سلوكه، وتهذيب أخلاقه حتى يكون عضواً صالحاً لنفسه ولأهله ولمجتمعه، ويتعامل مع الآخر بأسلوب حسن يؤدى إلى الأمان والاطمئنان، فيعم السلام ربوع الكرة الأرضية.

الثالثة: يدعو الإسلام إلى إعمار الأرض، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]، ولهذا فهو يحث المسلمَ على العمل فى جميع مجالات الحياة، لدرجة أنه جعل العمل الدنيوى خير من العبادة؛ فقد روى أنه أُخْبِر النبى ﷺ عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، فسأل النبى ﷺ عمن يُطْعِمُه، فقالوا له: أخوه، فقال ﷺ: أخوه خير منه. وعليه فمن يرى أن تفضيل الجلوس فى المساجد للصلاة والتعبد على العمل الدنيوى، فهو لا يفهم تعاليم الإسلام، ولا يدرك ما يطلبه من المسلم فى مجال تعمير الأرض، ولذا فقوله هذا افترء على الخطاب الدينى، وتنفير كثير من الناس وإبعادهم عن ساحة الإسلام.

الرابعة: مراعاة المستوى الثقافى للمخاطَبين، إذ يجب عليه أن يلتزم بالقول المشهور: " لكل مقام مقال "، فيخاطب الناس بما يفهمون، فإذا كانوا على درجة عالية من الثقافة، فعلى الممارس للخطاب الدينى أن يرقى بأدلته العقلية إلى مستواهم حتى يكون لكلامه أثر فى نفوسهم، وتصادف أدلته قبولاً فى عقولهم. وإن كانوا متوسطى الثقافة فعليه أن يخاطبهم بما يفهمون، ويدعوهم بالأسلوب المناسب لمداركهم الثقافية، وفى القرآن الكريم صور متعددة لهذا المنهج؛ فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات، والتأمل فيما فيها من دقائق الصنع وبدائع الإحكام والإتقان، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢]، وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ

﴿ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ – ٧]، ولاشك أن هذا موجه إلى من يستطيع بقدرته الفكرية أن يتوصل إلى دقة الصنع فى الكون، ومعجزة الخلق فى الإنسان لعله يهتدى بهذه الأدلة إلى الإيمان بالخالق جل وعلا. وفى آيات أخرى يوجه الخطاب إلى من هم أقل ثقافة، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [الحج: ٧٣ – ٧٤]، ويقول: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الفرقان: ٣][1]

الخامسة: أن يراعى الممارس للخطاب الدينى فى فتاواه طبيعة العصر، وحال المجتمع الذى يعيش فيه؛ فلا يتحدث بأحكام ارتبطت بظرف تاريخى سابق، ولا يركز على الآراء المتشددة، حتى لا ينفر الناس، أو يضعهم فى حرج يُصَعِّب عليهم حياتهم، وله فى آراء معتدلة ومُيَسِّرة – قال بها علماء كبار – مندوحة، وهو بذلك يكون ملتزماً بقول رسول الله ﷺ: " **بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا** "[2]. كذلك لا ينتقى من الآراء ما يتنافى مع طبيعة العصر، ويصطدم بمتطلبات الحياة المعاصرة، بل يبحث عن الآراء التى تتناغم مع طبيعة الحياة، وتنسجم مع قدرة الإنسان على الالتزام بها، يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ۝٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولا يقدر على ذلك إلا الراسخون فى العلم، وصدق من قال: " التشدد من طبيعة الجاهل الذى لا يلم بالآراء المتعددة

(١) راجع ا شامة: الإسلام دين ودنيا صـ ٢٦٢ وما بعدها.

(٢) صحيح البخارى جـ ١ صـ ٣٨.

فى المسألة الواحدة، والتيسير لا يحسنه إلا العالم، المتمكن من تفاصيل الأحكام وآراء الفقهاء المتعددة، والمدرك لطبيعة العصر وحال المستفتِى ".

السادسة: بيان ما يدعو إليه الإسلام من حرية وإبداع، فحرية الإنسان فى الإسلام مكفولة، لأنها أساس المسئولية، إذ لا مسئولية بدون حرية، فمادام الإنسان حراً فيما يفعل، فهو مسئول عما يترتب على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يقيد الإسلام حرية الإنسان بأى قيد، حتى وإن ترتب على ذلك عدم الإيمان بوجود الله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩]، فإذا كانت الحضارة الحديثة ترفع كثيراً من الشعارات، مدعية أنها حققت للإنسان ما لم يكن فى متناول يده على مر التاريخ البشرى، ومن هذه الشعارات: ادعاؤها بأنها أرست قواعد الحرية فى المجتمع، وثبتت دعائمها فى المجتمعات الإنسانية؛ فبعد أن كان الإنسان مستعبداً لزعيم القبيلة فى العصور الأولى، ومن بعده للملوك والأمراء، صار اليوم حراً فى حياته، يستطيع أن يكيفها حسبما يشاء، وعلى أى كيفية يريد، بل إن ما يحتل المركز الأول فى وسائل الإعلام الحديثة، ويحظى باهتمام كبير من المحللين السياسيين والمعلقين الإعلاميين هو التركيز على حرية الإنسان فيما يعتقد، والتأكيد على حقه فى التعبير عن أفكاره وآرائه، دون خوف من حاكم، ولا وجل من رئيس، إذ يستطيع الفرد فى ظل الحضارة الغربية أن يدلى برأيه فى جميع شئون الحياة، حتى ولو عارض أرباب السلطة وأصحاب الهيمنة، مهما كانت قوتهم وسلطاتهم..... فإذا بحثنا عن وضع المجتمعات الإسلامية فى رأى هؤلاء، فإننا نجدهم قد وضعوها فى ذيل قائمة تصنيف المجتمعات فى هذا المجال، مدعين أنها مجتمعات لا يتمتع أفرادها بأى نوع من أنواع الحرية الشخصية، إذ لا يستطيع المواطن أن يدلى برأيه فيما يدور حوله من أحداث..... وهذه الصورة هى

انعكاس للظاهرة العامة فى المجتمع بما فيه من علاقات بين الرئيس والمرءوس، وبين الحاكم والرعية، بل بين التلميذ والأستاذ فى الفصول الدراسية. وعلى الرغم مما فى ذلك من مبالغات، أدى إليها عدم معرفتهم بفلسفة العادات والتقاليد فى المجتمع الإسلامى، فإن مما يثير انتباهنا أن يربط هؤلاء هذه الظاهرة بالإسلام، ثم يصلوا إلى نتيجة مفادها: أن الإسلام لا يعترف بالحرية فى المجتمع.....وأظن أنه لا يمكن لأحد أن يعتقد أن الإسلام يميل إلى الدكتاتورية مستدلاً على ذلك بما يشاهده فى المجتمع الإسلامى المعاصر من تحكم الآباء فى الأبناء، وممارسة سلطة الدكتاتورية فى تربيتهم وتوجيههم، إذ ليس ما يمارسه المسلمون حجة على الإسلام، لأنهم - ككل شعوب الأرض فى تطبيق مبادئ العقيدة — قد ينحرفون عن جهل، أو خضوعاً لتقاليد لاصلة لها بالإسلام. وقد تختفى معالم الإسلام نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية. ولهذا ينبغى على الدعاة أن يركزوا فى دعوتهم للمسلمين على أن يراعوا مبادئ الإسلام فى أسلوب حياتهم، حتى يكونوا صورة صادقة للإسلام، تجذب غير المسلمين إلى التفكير فى العقيدة التى هذبت أخلاق المسلمين، وقومت سلوكهم، وإلا فسوف ينفرون من الإسلام بسبب ما يفعله المسلمون، وبذلك يصبح سلوك المسلمين وسيلة إعاقة فى طريق نشر الدعوة، بدل أن يكون نموذجاً يقتدى به من يؤيد الصلاح والإصلاح فى المجتمع الإنسانى.[1]

فحرية التعبير ليس حقاً فقط للإنسان فى المجتمع الإسلامى، بل واجب على كل قادر، فمن يستطيع ممارسة هذه الحرية بالقول - عن طريق اللقاءات والندوات — فلا ينبغى أن يتكاسل عن هذا العمل، بل يجب عليه السعى بكل ما

(١) راجع المصدر السابق صـ ٣٠٩ وما بعدها

أوتى من قوة وجهد لإيصال كلمة الحق – أو ما يعتقد أنه حق – إلى أكبر عدد من الناس. ومن يرى أن بإمكانه التعبير عن رأيه بالقلم، فعليه أن يستخدم كل وسيلة ممكنة لنشر آرائه على الناس، فإن فرط أفراد الأمة فى هذا الواجب، سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، فيسقيهم مراً، ويطعمهم حنظلاً، ويومئذ لا يستطيعون الخروج من سجنه، ولا التخلص من زبانيته، يقول رسول الله ﷺ: **" والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة، حتى يبعث الله أمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأعواناً خونة، وعرفاء ظلمة، وقراء فسقة، سيماهم سيماء الرهبان، وقلوبهم أنتن من الجيف، أهواؤهم مختلفة، فيفتح الله عليهم فتنة غبراء مظلمة، فيتهاوكون. والذى نفس محمد بيده، لينقضنَّ الإسلام عروة عروة، حتى لا يقال: الله...الله... لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، يسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم "** ويقول ﷺ: **" والذى نفس محمد بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفيه، ولتأطرن على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعنكم كما لعنهم "**

فحرية الفكر وسيلة من وسائل حماية المجتمع الإسلامى، إذ هى تقيه من الأخطار التى تحيط به، وتحصنه ضد الكوارث التى تستهدفه، وتحميه من الأعداء الذين يتربصون به، وتقويه بالانفتاح على كل الأفكار والتجارب السياسية والاقتصادية فى العالم، حيث يسمح الإسلام بأخذ الصالح منها حتى تتمكن الدولة الإسلامية من الانطلاق والتقدم فى جميع المجالات.

إن حرية التعبير من لأسس الهامة، إن لم تكن الأساس الأول لنهضة الشعوب وتقدمها، فالمجتمع الذى تُكَمَّم أفواه أفراده لا يستطيع الابتكار، ويعجز

عن اكتشاف ما يؤهله للسير قدماً على طريق التقدم والحضارة، فلا يوجد – ولن يوجد – رأى بشرى مقدس يلتزم الجميع به، وإنما هى آراء اجتهادية، حتى لو كان تفسيراً لآية قرآنية أو شرحاً لحديث نبوى، فهى لا تخرج عن كونها رأياً بشرياً يخضع لثقافة المجتهد وعصره، ولذا يحق لمن عنده القدرة على الاستنباط أن يخالفه، مادام ذلك فى إطار المعنى اللغوى وروح التشريع الإسلامى، وذلك هو ماجعل الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان.

المنهج الثانى: **الموعظة الحسنة**، ويتضمن أسلوبين:

الأول: تذكير الناس بآلاء الله ونعمه عليهم، وحثهم على التحلى بالأخلاق الحميدة، والتزامهم بالمبادئ التى ذكرها الله ﷻ فى القرآن الكريم من: وحدانية الله، وتنزيهه عن كل نقص، والخضوع له وحده، لا يشاركه أحد، مهما كان مركزه فى الحياة الدينية والدنيوية، وعلى أى وضع كانت سلطته فى مجال الحياة العملية؛ فالتقديس له وحده، والطاعة لأوامره لا يشاركه فى ذلك أى مخلوق على وجه الأرض، والسؤال له، لا لأى بشر على وجه البسيطة، والالتجاء إليه، لا لأى قوة، مهما كان سلطانها وقوتها المادية، وعلى أى وضع كان نفوذها وجبروتها على الأمم والشعوب. كما يُذكِّر الدعاة المسلمين فى إطار هذا المنهج بما فرضه الله عليهم من مكارم الأخلاق، فيذكرهم بحسن معاملة من يشاركونهم فى الحياة، سواء كانوا أهلاً وأقارب، أم كانوا جيراناً وأصحاباً، أو مشاركين لهم فى الوطن، بصرف النظر عن لونهم وجنسهم وعقيدتهم، فيجب على المسلم- دينياً – أن يعامل كل من يحتك به بالحسنى، ويقدم له ما يحتاجه من مساعدة، سواء كان جاراً بالنسب، أو القربى، أو الدين، أو السكن، أو مشاركاً فى العمل والمحيط الجغرافى، يقول تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ

وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦]، فالصاحب بالجنب جار، له حق الجوار، ألا وهو ألا تؤذى من يليك، فإن كنت سائق سيارة، فلا تسيء الاستعمال حتى لا تؤذى المشاة، أو تضايق سائقى السيارات الأخرى، وإن كنت صاحب محل، أو مصنع، أو حقلاً، فلا تقترف من الأعمال ما يلحق الضرر بجارك، وإن كنت موظفاً فلا تُسْمِع زميلك ألفاظاً تؤذى شعوره، وَ تَجَنَّب كل عمل يسيء إليه. أما فى الشارع، سواء كنت ماشياً أو راكباً مواصلات عامة، قطاراً كان أو أتوبيساً، فلا تؤذى جارك، كأن تزاحمه فى الركوب أو النزول، أو تترك الضعيف واقفاً وأنت جالس، أو تستعمل الشارع استعمالاً سيئاً ينتج عنه ضرر بالغير. فإن حافظت على جارك فى كل هذه الأماكن، ومع كل هذه الظروف والملابسات، فقد نفذت الوصية التى وصى بها جبريل عليه السلام محمداً ﷺ، فقد جاء فى الحديث الشريف: " **مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سورثه**"[1]، ونفذت ما أمر الله ﷻ به فى قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾. فإذا التزم المجتمع بهذه التعاليم، سادت العلاقة الطيبة بين الأفراد، فشعروا بأنهم أسرة واحدة، ومن شأن هذا الشعور أن يُدْخِل الطمأنينة فى القلوب، والسكينة فى النفوس، فتستقر الحياة، وإذا استقرت الحياة، انصرف الناس إلى العمل والإنتاج، فتقوى الدولة، ويرتفع قدرها بين الأمم، وفى ذلك عزة للإسلام والمسلمين.

ماذا نفعل لكى تسود هذه الروح فى المجتمعات الإسلامية ؟

ينبغى أن نوقظ الشعور الدينى فى الناس، ونغرس فى نفوسهم الفضائل الدينية، لأن طبيعة التدين لها سلطان على النفوس فتخضعها لطاعة الله ﷻ، فإذا

(١) صحيح مسلم جـ ٤ صـ ٢٠٢٥.

ما انقاد الفرد إلى تنفيذ ما أمر الله، وجد نفسه تلقائياً يشعر بشعور أخيه، فتتماسك الأمة، ويصلب عودها، وتتحد أمام من يريدها بسوء.

لم تقتصر وصية الإسلام للمسلمين بحسن المعاملة وحفظ حقوق الآخرين على إخوانهم فى العقيدة، بل أمرهم أيضاً أن يحسنوا معاملة المخالفين لهم فى العقيدة، ماداموا يرعون حرمات الإسلام، ولا يأتون عملاً يترتب عليه إيذاء المسلمين، أو تهديد أمنهم، يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]

وقد سلك الإسلام فى إقامة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين منهجاً يستميل العاطفة، ويؤثر تأثيراً كبيراً على مشاعر الإنسان فى مجال التقريب بين أفراد البشر؛ ذلك أنه بَيَّنَ أن أصل الإنسان واحد، فهم مشتركون فى مبدأ الخلق ومادته، التى تَفَرَّع عنها جميع الآدميين، فهم، وإن اختلفوا فى الألوان والأشكال، وتباينوا فى الهيئات والملامح، فإنهم منحدرون من أب واحد وأم واحدة، مما يحتم عليهم أن ينهجوا فى سلوكهم مع بعض الأسلوب الذى ينبغى أن يسود بين الإخوة، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]، فإن هذه الآية تذكرة للإنسان بوحدة أصل البشرية جمعاء، ودعوة إلى العمل على ما يقوى الرابطة والتعاون والتكاتف بين جميع أفراد البشرية فى كل أنحاء الكرة الأرضية.

وعى المسلمون هذا الدرس على أحسن ما يكون الوعى والإدراك، فاتسمت معاملتهم مع أهل العقائد الأخرى بالتسامح؛ إذ أعطوهم الحرية الكاملة فى ممارسة عبادتهم وتأدية طقوسهم، فلم يضيقوا عليهم فى معابدهم، ولم يؤذوا مشاعرهم الدينية. كذلك منحوهم حقوق المواطنة كاملة فى المجتمع الإسلامى فى

جميع المجالات، فسووا بينهم وبين المسلمين فى مجال العمل حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة فى الدولة الإسلامية، وهيأوا لهم فرص النجاح فى التعليم والتجارة والزراعة وغيرها من مجالات النشاط فى المجتمع.

ولم تختلف معاملة المسلمين مع المجتمعات غير الإسلامية عن هذا الخط من التسامح وحسن الجوار، والتعاون على الخير لجميع أفراد البشرية، لأن الإسلام أباح لأولياء الأمور أن يقيموا علاقات سياسية مع الدول الأخرى، رغم الاختلاف فى الدين، وأن يكون بينهم تبادل تجارى.

بل إن المسلمين ضربوا أروع الأمثال فى عدم التعصب ضد المخالفين لهم فى العقيدة، وذلك عندما احتضنوا الفلسفة اليونانية، فدرسوها وناقشوها، فأقاموا بذلك الجسور مع الفكر البشرى كله على اختلاف اتجاهاته وتباين أشكاله، وتنوع قنواته، وتغاير ألوانه، مما يدل على أنهم يؤمنون بالوحدة الإنسانية، فعملوا على إسعادها، وتجنب آلامها.

فاستخدام هذا المنهج فى الخطاب الدينى هو العلاج الناجع للأمة، يشهد على ذلك أن الأمة التى انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار قدرتهم على معالجة الأمراض الاجتماعية، ويشتد عودها ويسلم من الأمراض كلما وجد التيار الدينى طريقه الصحيح فى نفوس أبنائها. فإذا كان الواعظ ماهراً، والخطيب حكيماً استطاع أن يسلك من الطرق فى الإرشاد ما يشفى القلوب من أمراضها، ويوقظ الضمائر من نومها، ويطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل، وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها، وتعود إلى حد الاعتدال، وتتجلى بالفضائل والكمال بشرط أن يبتعد الخطاب الدينى عن الإغراق فى الخرافات والأساطير التى تغيب العقل، وتحجب عنه معالم الطريق الصحيح الذى يؤدى به إلى حياة سعيدة فى الدنيا، وثواب مستحق فى الآخرة

يدخله جنة الخلد، جزاء ما التزم فى الدنيا الطريق الصحيح الذى رسمه الإسلام.

الثانى: **التعليم**، إذ يجب على الداعية - وبتعبير آخر: الممارس للخطاب الدينى- أن يمحو أمية المسلمين الدينية، وذلك بتعليمهم الأحكام الفقهية، ويذكرهم بما هو مفروض عليهم، فيبين لهم الحلال والحرام فيما يباشرونه فى حياتهم، وما يمارسونه من أنشطة فى جميع مجالات الحياة، وينبغى عليه أن يتجنب الآراء التى يشق على المسلمين تنفيذ مقتضاها، إتباعاً لقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وامتثالاً لقول رسول الله ﷺ: **"يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا "**.

وهذا العمل فرض كفاية، إذا قام به العض سقط الإثم عن الجميع، أما إذا غاب الدعاة من المجتمع فالعقاب واقع لا محالة على جميع المسلمين، وخاصة أولياء الأمر الذين أهملوا إعداد دعاة يقومون بتعليم المسلمين أحكام دينهم، طبقاً لما يجب على المجتمع بأن يكون فيه مجموعة متفقهة فى الدين، عالمة بأحكام التشريع، تقوم على تعليم الناس أحكام دينهم، وفقه شريعتهم، حتى يؤدوا عبادتهم بالصورة الصحيحة، ويكونوا على بينة من تقييم مسائل الحياة المختلفة، فلا تضلهم أصوات المفسدين، ولا تنحرف بهم آراء الجهلاء والمدعين عن الطريق المستقيم.

ولابد من وجود هذه الفئة فى المجتمع الإسلامى، لأنهم المنارة التى يلجأ إليها الحائرون، والمصابيح التى يهتدى بنورها المهتدون، فوجودهم ضرورى فى المجتمع، فلا يجوز للمسلمين أن يتهاونوا فى إعداد هذه الطائفة المتخصصة فى شرح أحكام الله وتعليمها للناس، حتى لو كانوا فى حالة تحتم على كل مسلم الانخراط فى سلك المدافعين عن الإسلام فى ميدان القتال، فقد استثنى الله من هذا الواجب أولئك الذين عكفوا على دراسة العلوم الدينية، فقال تعالى: ﴿وَمَا

كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢]، لأن التفقه فى الدين من العوامل المؤثرة فى حياة المجتمع فى سلمه وحربه، فهو الذى يُكَوِّن المسلم الصالح، الذى يرعى الله – نتيجة للتربية الدينية على أيدى الفقهاء – فى عمله، ويخشاه فى سلوكه مع الناس. وما المجتمع القوى إلا أفراداً صالحين فى أعمالهم، مستقيمين فى سلوكهم؛ إذ كلما حسنت أعمال الفرد قويت الأمة بإنتاجها وإنجازاتها فى جميع مجالات الحياة. وكلما استوى سلوك الأفراد واستقامت حياتهم، ازدادت صلابة الأمة واشتدت قوتها، فلا يقوى عدوها على زعزعة بنيانها أو خلخلة تماسكها الاجتماعى.

وعليه فعمل الداعية – سواء كان فى مجال التعليم والتدريس، أو فى مجال التذكير والتنبيه – أساس بنيان الأمة، فمن يرغب فى بناء أمة قوية، فلا ينبغى أن يهمل هذا الجانب الحيوى فى البناء.

ويجب على الممارس لهذ المنهج أن يلم بآراء الفقهاء فى مسائل العبادات، وأن يتقن فلسفة التشريع فى أنشطة الحياة المختلفة، كى يختار منها ما يلائم حياة الناس، وينسجم مع متطلبات عصرهم؛ ذلك أن اختلاف الآراء فى الأحكام يتيح للمسلم أن يختار منها ما يسهل عليه أداء العبادات، ويسهل عليه فرصة الاندماج فى مسيرة الحياة البشرية، مهما كانت سرعة خطاها على طريق التقدم والرقى، وعلى أى وضع كانت درجة حضارتها ووقع حياتها.

فمن لا يلم بهذه الآراء المتعددة والأحكام المتفاوتة، فلا يخوض فى مسائل لا يعلم عنها شيئاً، ولا يجوز له التصريح بأن ما يعرفه هو الصحيح المطلق، ويجب على المسلم الالتزام به، لأن ذلك افتراء على سماحة الإسلام، واتساع رقعته لكل البشر على اختلاف نظم حياتهم، باختلاف الأقطار والعصور، كما أن التشدد

فى هذا المجال، وطلب الالتزام بهذا الرأى دون غيره مناقض لما استقر عليه رأى الفقهاء فى استنباط الأحكام، على أن ما يستنبطه الفقيه من أحكام لا يرقى إلى درجة اليقين المطلق، فصحة ما أفتى به نسبية، أى أنها تحتمل الصواب والخطأ، وقد نبه الشافعى على هذا بقوله: " رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب. " وفى نفس هذا المعنى قال أبوحنيفة: " هذا أفضل ما توصلنا إليه، فمن جاءنا بأحسن منه تبعناه ".

ولبيان هذا المبدأ نسوق إليك هذا المثل، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ۝٦﴾ [المائدة: ٦]، فقد اختلف العلماء فى كيفية مسح الرأس إلى ثلاثة آراء:

الأول: من يرى أن مسح كل الرأس واجب فى الوضوء، مستدلاً على ذلك بأن الباء فى ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ زائدة للتأكيد - وهى قاعدة لغوية -، والمعنى: وامسحوا رؤوسكم، أى كل الرأس.

الثانى: من يرى أن الواجب هو مسح بعض الرأس فقط، لأن الباء فى ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ للتبعيض، وأقل البعض عنده هو الربع.

الثالث: اتفق مع الرأى الثانى فى أن مسح بعض الرأس هو الواجب، ولكنه اختلف معه فى تحديد مساحة البعض، فرأى أن البعض يطلق فى اللغة على أقل جزء من الكل، وعليه فيجزئ مسح شعرة واحدة فى المفروض مسحه فى الوضوء، لأنها — أى الشعرة — تعتبر جزءاً من الرأس.

هل يستطيع أحد أن يجزم بأن أحد هذه الآراء الثلاثة صحيح مائة فى المائة، والآخرين باطلان بطلاناً محضاً ؟

لا يجرؤ أحد على التصريح بذلك، حتى صاحب الرأى نفسه لم يَدَّعِ أن رأيه

هو الصحيح وماعداه فهو باطل، فلم يخرج الأمر عن دائرة الاحتمال، قال الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب.

أضف إلى ذلك أن فى تعدد الآراء رحمة للمسلمين، وهو لازم من لوازم حياتهم، فقد تعترى الإنسان حالة لا يستطيع معها مسح كل الرأس فيلجأ للرأى الآخر، وقد يرى البعض أن مسح شعرة واحدة سهل التطبيق، فيلتزم به، ولذلك روى فى الأثر أن اختلافهم (أى الفقهاء) رحمة، أى تيسير للمسلمين، حتى لا يصيبهم حرج، لو اتفق الفقهاء على رأى واحد لا يناسب حالة البعض، أو لا يتلاءم مع متطلبات العصر.

وعليه فيجب على من يمارس الخطاب الدينى أن يعرف ذلك جيداً، حتى لا يفتى بآرائه المتشددة، فيضع كثيراً من المسلمين فى حرج، وينفر غير المسلمين من الإسلام، إذا سمعوا هذه الآراء التى لا تتفق مع طبيعة العصر ومتطلبات الحياة.

فهل نرى من الدعاة فى العصر الحاضر من يفهم هذه الفلسفة فى التشريع الإسلامى ؟؟؟؟؟

المنهج الثالث: المجادلة بالتى هى أحسن

تتفاوت القدرات الذهنية، والإدراكات العقلية بين الأفراد، طبقاً للتكوين البيولوجى والاستعدادات الفطرية. ويبدأ هذا التكوين منذ بداية النطفة؛ إذ تنتقل إلى الإنسان الصفات الوراثية من مصدرها، وتتكون عناصر التلقى فى رحم الأم، من حيث الرعاية الصحية لها، والمؤثرات النفسية المحيطة بها، ثم يستمر التأثير بعد الولادة من مصادر عدة، من: نوعية الغذاء، والبيئة الطبيعية، والمؤثرات الثقافية والفكرية المحيطة به، سواء كانت الأسرة، أو المدرسة أو المجتمع.

ولما كانت المصادر مختلفة، والبيئات متفاوتة، وعناصر الثقافة متعددة،

واختلاف العادات والتقاليد الاجتماعية باختلاف الزمان والمكان الذى يعيش فيه الأفراد، اختلف تقبلهم للفكر الحديث والدين الجديد. وعليه فكان من الطبيعى أن يتفاوت اقتناعهم برسالات الرسل، فمنهم من آمن بمجرد سماعه نداء الرسول، لأن الظروف المحيطة به ساعدته على نبذ القديم والاقتناع بالجديد، ومنهم من عارض، لأن تراكم القديم لديه متجذر فى نفسه، وعادات المجتمع وتقاليده راسخة فى ذهنه، فلم يستطع التخلص منها إلا بعد زمن طال بمقدار تأثره بما لديه من مؤثرات طمست قدراته الذهنية وإدراكاته العقلية، فأعجزته عن رؤية الجانب الإيجابى فى الدعوة الجديدة، فاستكبر وعارض، وأعرض عن الاقتناع بهذا الدين، واشتدت هذه المعارضة بمقدار تمكن القديم من وجدانه، وتسلط ما تلقاه منذ بدء حياته عليه.

أمر الله ﷻ رسوله بأن يجادل هؤلاء بالحسنى، فيناقشهم بالعقل تارة، وبالتأثير على وجدانهم تارة أخرى، وعند الاقتضاء يضرب لهم الأمثال للتأثير على حواسهم ومشاعرهم، وإخبارهم بما حدث للمعارضين السابقين لزحزحتهم عما يقودهم إلى الهلاك والخسران المبين، كما حذره من استعمال الخشونة فى مخاطبتهم، والغلظة فى مناقشتهم، حتى لا ينفروا منه، ويسدوا آذانهم عن سماع دعوته، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومنعه من سب آلهتهم، على الرغم من ضلال عقيدتهم فيها وفساد دعوتهم بألوهيتها، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فعليه أن يختار فى جداله معهم الكلمة الطيبة التى لا تؤذى أحداً، ولا تجرح كرامة المعارضين.

وعليه فإذا أراد الممارس للخطاب الدينى أن يلتزم بأسلوب القرآن الكريم فى

الحديث مع المخالفين، فعليه أن يسلك أفضل الطرق الموصلة إلى إقناع الخصم مع البعد عن الحماس والانفعال الذى قد يؤدى إلى حجب الحقيقة، وأن يتجنب تحقير فكر من يخالفه، فلا يزدريه، أو يسخر منه، أو يسبه، إذ مادام إقناعهم بالإسلام هدفه فلابد من استمالتهم، وكسب ثقتهم، لأن هذا يجعلهم يسمعون له، ويصغون لحجته، ويفكرون فى أدلته.

أما إذا أغلظ القول لهم فإنهم ينفرون منه، ويعرضون عن سماع حجته، فاللين فى القول مطلوب من الممارس للخطاب الدينى، حتى مع الذين آمنوا ورضيت نفوسهم بما يقول، وخضعت جوارحهم لما يأمر به. فإذا استهان الداعية برأى من يدعوه إلى الإسلام، وسب ما يعتقدون فلا ينتظر منهم إلا المقابلة بالمثل، لأن الإنسان لا يسكت على إهانته، حتى وإن تدنت طبقته الاجتماعية، ولا يرضى بالسخرية بمعتقداته، حتى وإن كانت ظاهرة البطلان.

علمنا القرآن الكريم كيفية التصرف مع المعاندين إذا أصروا على عنادهم، واستمروا فى عبادة الأوثان والأحجار، أو استمرؤوا الشرك بالله، فقال تعالى مبيناً ما يجب اتباعه مع الكفار: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ - ٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]، أى إذا بلغ الداعية رسالة ربه إلى من يعبد آلهة من دون الله، وحاجهم بالقول اللين، والحجة الواضحة فأصروا على دينهم، ولم يتجاوزوا هذا الإصرار، فلم يحاربوا الدعوة، ولم يقفوا فى طريق عمل الدعاة، فلنتركهم وشأنهم، لأن مهمة الداعية هى التبليغ فقط، فلا يتجاوزها إلى فرض الإيمان بالقوة، يقول

تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

كذلك يكون الحسن فى المجادلة باتباع أسلوب المجادلين، أى محاورتهم بالمنهج الذى يتبعونه، فإن كانوا فلاسفة ومفكرين، فليسلك الداعية معهم حواراً فكرياً حول طبيعة الكون ومصدره، ومركباته المتناسقة فى تفاعلها وانسيابها. كما يناقشهم فى مفهوم الحياة وغاياتها، وعلاقة الإنسان بما حوله من ظواهر طبيعية، وما فى داخله من تركيبات فسيولوجية، وعوارض نفسية وروحية. وإن كانوا اقتصاديين فليبين لهم أحكام الإسلام وتشريعاته فى عملية المال فى المجتمع، وكيفية توزيعه على أفراده. وإن كانوا اجتماعيين فيشرح لهم أثر الإسلام فى تكوين الخلايا الاجتماعية، وأهمية تعاليمه فى تنظيم العلاقات بين جميع أطراف الجنس البشرى.... وهكذا مع كل مجموعة يكون حجته مطابقة لاهتمامات أفرادها وتخصصها، حتى العامة من الناس، فإنه يسلك معهم طريقاً تتفق مع معلوماتهم، وتتناسب مع قدرتهم الفكرية.

أما إذا تجاوز المدعوون حدود الجدل الفكرى، فاعتدوا على المسلمين، أو حاربوا الدعاة بأساليب تخرج عن دائرة الحوار الفكرى إلى استعمال القوة واستخدام السلطة، فإن حسن المجادلة فى هذه الحالة لايكون إلا بالمثل، وهو المجادلة بالقوة، ولا يقوم الدعاة بهذا، بل الأمر فى هذه الحالة خارج عن طاقتهم وتخصصهم، بل يكون ذلك واجب الحاكم، أو ولى الأمر، فهو فى هذه الحالة مدعوٌّ إلى الدعوة إلى الله بما يملك من سلطان وقوة، يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ

وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠]

فالمنهج الثالث، وهو: **المجادلة بالتى هى أحسن**، يتضمن القول الحسن والأسلوب اللين، واختيار الأدلة التى تتفق مع درجة ثقافة المجادلين ونوع تخصصهم، كما يتضمن استعمال القوة، عندما يعلن الخصم العداوة، ويستخدم سلطانه وقوته لمنع الدعاة من نشر الدعوة، أو يستخدم جبروته فى تعذيب من آمن بالإسلام والتنكيل بهم.

قال رسول الله ﷺ: " **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت** "[1]، فلا يستطيع تنفيذ هذه الوصية فى مجال الدعوة الإسلامية إلا من كان قادراً على فهم النصوص الإسلامية، ومدركاً لفلسفة التشريع الإسلامى، فمن يحفظ النصوص عن ظهر قلب، وليست عنده القدرة العقلية على استخدام العقل فى استنباط الأحكام، أو على الأقل فى توظيف العقل فى عرضها وبيانها للناس، وذلك باستعمال الأسلوب العقلى فى مخاطبة غير المسلمين، وكذلك فى إزالة الشبهات عند بعض المسلمين فى مدى مواءمة الشريعة الإسلامية لكل عصر ولكل بيئة، فينبغى عليه أن **يصمت**، لأن بضاعته العلمية قليلة لا تمكنه من خدمة الإسلام فى هذا المجال، بل على العكس، سوف يثير شبهات تحجب ضرورة تطبيق الإسلام فى المجتمع المعاصر، فتنفر غير المسلمين من الإسلام، وتزيد شكوك بعض المسلمين فى صلاحية الإسلام للحياة المعاصرة، فالخدمة التى يؤديها هؤلاء الناس - العاجزين علمياً وفكرياً عن عرض التعاليم الإسلامية عرضاً صحيحاً - للإسلام، هى عدم الخوض فى المسائل الدينية، حتى لا يضروا

(١) صحيح البخارى جـ ٥ صـ ٢٢٤٠ رقم ٥٦٧٢.

الإسلام بجهلهم وعدم قدرتهم على القيام بهذه المهمة.

ومن لا يحسن المجادلة مع المخالفين، وذلك لغلظة أسلوبه، وخشونة تعبيراته، ورميه المعارضين بالعته والسفه، إن كانوا غير مسلمين، واتهامهم بالكفر والزندقة إن كانوا مسلمين **فليصمت**، لأن هذه الطريقة فى المناقشة توحى للمستمعين لهذا الخطاب بأن الإسلام عدوانى؛ لا يقبل سماع الآخر، ولا يعرف اللين فى عرض الآراء؛ فهو بعيد كل البعد عن السماحة فى الحوار، فهو يفرض الرأى بالقوة، لا بالدليل المقنع، ولا يسمع لرأى الآخرين وأدلتهم فيفندها، بل يرفضها دون أن يسمعها ويعيها، وتلك حماقة تصدر كل يوم - تقريباً — من بعض الممارسين للخطاب الدينى فى المجتمع المعاصر، إذ نسمع بين الحين والآخر فتاوى لا تصلح للحياة المعاصرة، وتهديداً باسم الإسلام للمخالفين بالويل والثبور، ورميهم بالكفر والزندقة، مما شوه صورة الإسلام عند كثير من المعاصرين، فبدؤوا يتساءلون عن سماحة الإسلام التى اختفت فى أسلوب بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة، وعن احترامه للرأى الآخر التى وصلت إلى درجة وضع الحق الإسلامى فى كفة مقابل ضلال المخالفين فى الكفة الأخرى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]، كى تلين قلوبهم، وتخضع أفئدتهم لسماع قول الحق، بغية الاقتناع، وتلطيفاً لحدة الجدال حتى يعطى الفرصة للعقل، حتى يفكر ويقارن، ليتبين له الحق من الباطل، فيهتدى إلى ما فيه خير له فى حياته، ونجاة له من النار فى مماته.

إن ما نسمعه اليوم من كثير من الممارسين للخطاب الدينى فى وسائل الإعلام المختلفة يؤثر تأثيراً سلبياً على الإسلام، مما يجعل المتخصصين يلهثون وراء هذه الظاهرة لإصلاح ما أفسده أولئك فى مجال التشريع الإسلامى، ولذلك ينبغى ألا

يمارس هذا الخطاب إلا المؤهين علمياً، والقادرين فكرياً على عرض تعاليم الإسلام بصورة صحيحة، تقنع غير المسلم بالإسلام، وتثبت عقيدة المسلمين حتى لا تزعزها التيارات الفكرية المعادية للإسلام.

فمن يحق له أن يقوم بهذه المهمة ؟

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

التخصصات

تعارف الناس فى جميع العصور والأقطار على أن لكل حرفة رجالها الذين نشأوا فيها، وتربوا عليها، فسبروا أغوارها، وأتقنوا كل ما يتعلق بها، فهم القادرون على صنع ما يحتاجه المجتمع منها، فهم المتخصصون فى معرفة ما يتعلق بها، ولذلك لا يُطْلَب من أحد القيام بأى عمل إلا إذا كان مُلمًّا بمفرداته، قادراً على إتقانه، ومتمكناً من إخراجه على الوجه الأكمل، فلا يُطْلَب – مثلاً – تكليف فلاح بعمل نجار، ولا يُنْتَظَر من بَنَّاء التعامل مع الآلات، أيًّا كان نوعها. فالتواصل بين أرباب الحرف معروف، والتباين بينها واضح، فمن يقحم نفسه فى حرفة، ليس هو من أربابها قوبل بالاستنكار والرفض، فلا يطمئن صاحب العمل إسناد ما يطلبه إلا إلى ذى خبرة فى مجال المنتج المطلوب، حتى يحصل على مبتغاه بصورة جيدة. تجذر هذا المفهوم فى أعماق المجتمع الإنسانى، وتعمق فى مفهوم العامة والخاصة، حتى شاع بينهم هذا المثل: " إعط العيش لخبازه، حتى ولو أكل نصفه "، لأن صاحب الشيء سيأخذ النصف الباقى سليماً إذا كلف به متخصصاً، أما إذا أسند عمله إلى غير المتخصص، فسوف لا يأخذ شيئاً سليماً على الإطلاق.

فإذا كان هذا مطلوباً فى مجال الحرف والصناعات، فهو فى فى مجال الفكر والثقافة من الضرورات اللازمة، والواجب الذى لا يُفَرَّط فيه على الإطلاق، لأن المساوئ الناتجة عن صدور الفكر والتوجيه من غير المتخصصين أكثر ضرراً من رداءة الصناعة فى مجال الحرف، ذلك أن الثقافة والتوجيه الفكرى من غير المتخصصين يصيب الأمة فى مقتل؛ إذ هو ينخر فى عظامها، ويهدم بنيانها التى تقوم حياتها عليه، ويلحق الأذى بمبادئها وقيمها، فتتيه فى وديان الهلاك، وتغرق

فى بحار الظلمات، فلا شاطئ يأخذ بيدها، ولا منارة تهديها، فهى غارقة فى تيارات الجهل الذى يصبه الجهلة وأنصاف العلماء فى نهر حياتها، وتتخبط بين الآراء التى تحمل بين طياتها سُمًّا زعافاً من جراء ما ينشر أنصاف العلماء من مبادئ لا تصلح لحياة بشر، ولا تستقيم مع أبسط قواعد الحياة الاجتماعية، ولا تتناغم مع مقتضيات العصر وطبيعة الحياة الإنسانية[١].

فلو نظرنا إلى ما يمارسه بعض الجهلاء وأنصاف العلماء فى مجتمعنا المعاصر، لتبين لنا أن ما ينفث فى عقول الناس بعيد كل البعد عن سماحة الإسلام ووسطيته، وتعامله اللين مع الآخر، واتساقه مع طبيعة الإنسان ونظام حياته على اختلاف توجهاته وأجناسه، وتفاوت أقطاره، وتباين عصوره وأزمانه؛ فالإسلام لا يبيح للإنسان أن يتحدث بما لا يعلم، وخاصة فى مجال الدين الذى هو من الأسس الهامة لحياة الأفراد والمجتمعات، فإذا خاض جاهل فى المسائل الدينية فقد ارتكب إثماً كبيراً، وعلى المسلمين أن يعرضوا عنه إن لم يقاوموه، لأنه بافترائه على الدين[٢]، وتجرئه على الفتوى بدون علم، يتسبب فى بلبلة العامة، ودفع الشباب إلى التشدد والتطرف، بل يقودهم إلى العنف مع من يخالفهم فى الرأى، أو يسلك فى تدينه تيسيراً ذهب إليه بعض كبار العلماء.

لقد دأب الجهال وأنصاف العلماء على التصريح بفتاوى فات زمانها، أو كانت مرتبطة بظروف لم تعد موجودة الآن، وما ذاك إلا لأن بضاعتهم من

---

(١) بل إننا نسمع من هؤلاء أحاديث وفتاوى يعف اللسان عن التلفظ بها، مثل: الحديث عن الاتصال الجنسى بين الإنسان والحيوان، أو بينه وبين المخلوقات غير المرئية وغيرها من الأمور التى لا يتصورها عقل، ولا يستسيغها منطق.

(٢) لقد تجرأ بعضهم فى الآونة الأخيرة، فأعلن أن جبريل نزل على جماعته وأصدر إليهم أوامر لينفذوها ضد مخالفيهم، **فهل يمكن أن يكون هناك افتراء على المقدسات الدينية أبشع من هذا ؟؟؟؟؟**

العلوم الدينية مزجاة، وعلمهم بالأحكام مقصور على ما تلقوه من شيوخهم الذين لا علم لهم بتعدد الآراء فى الأحكام الفقهية، واختلاف المناهج فى استنباطها، لأن كثيراً منهم لم يدرس فى معاهد متخصصة، ولم يتلق ثقافته الدينية من عالم متخصص، بل اقتصرت على كتب الأرصفة، ونشرات من يدعى العلم، ولا علم له فى هذا المجال، بل قد يكون مهندساً أو طبيباً أو محاسباً...أو....أو....إلخ، حتى يمكن أن يكون نجاراً، أو عاملاً فى صناعة يدوية. ولست مجنياً على أحد إذا قلت: إن بعضهم قد فشل فى مهنته الأصلية، فلجأ إلى الدين وممارسة الخطاب الدينى، لأنه رأى أنها تدر عليه من المال ما عجز عن تحصيله من مهنته التى تعلمها أو من تخصصه الذى درسه فى الجامعة بعيداً عن المجال الدينى، وأغراه على الخوض فيما لا علم له به ما سمعه عن العطايا والهبات التى هبطت على الممارسين للخطاب الدين من رجال المال الذى ضموهم إلى مجالسهم ليضفوا عليهم نوعاً من الوجاهة، وهالة من التدين الذى قد يسهل لهم كسب مزيد من الأموال[1].

انتشرت هذه الظاهرة فى مجتمعنا المعاصر حتى طغت على أصوات الراسخين فى العلم، فدفعتهم إلى الانزواء فى مجالسهم الخاصة (فى الجامعة وفى المساجد). وساعدت وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة المرئية منها على إلقاء الضوء على هؤلاء المدعين والمتطفلين على المجال الدينى، وبالأخص إذا كانت فتاواهم متشددة، أو كانت آراؤهم متناقضة مع وقع الحياة المعاصرة، بغية جلب المزيد من الإعلانات التى تدر على القناة المال الوفير، لأن النفس الإنسانية – على وجه

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة ؛ فقد كانت السلاطين والأمراء فى الزمن القديم يغدقون على الشعراء الذين يمدحونهم، ويجزلون العطايا لمن يتملقونهم من الفقهاء ورجال الدين، واليوم نرى المال يتدفق من الأمراء والحكام على من يمدحونهم من الكتاب، والمتطفلين على مجال الخطاب الدينى، وأصحاب المنابر الإعلامية.

العموم – يستهويها الغريب من الأفكار والرؤى، فهم – أى أصحاب القنوات الفضائية – يُغَيِّبون العقول بهذا النهج، ويطمسون سماحة الإسلام بهذا العمل غير المسئول الذى ينحرف بهذه الوسائل عن أهم أهدافها فى المجتمع، ألا وهو التثقيف والتنوير، وإصلاح ما أفسدته – وماتزال – التيارات الفكرية الهدامة.

ينبغى على أولى الأمر فى المجتمعات الإسلامية أن يمدوا يد المساعدة – سواء كان مالية أو قانونية – إلى المؤسسات الدينية التى تُخَرِّج متخصصين فى العلوم الدينية لوأد هذه الظاهرة، حتى يتسنى للمسلم أن يتلقى صحيح الدين من عالم متخصص، فيسلم تفكيره الدينى، ويتفق سلوكه مع فقه الشريعة، وتنسجم حياته الدينية مع وقع الحياة فى كل زمان ومكان.

من هم هؤلاء المتخصصون فى العلوم الدينية، وماهى مجالات تخصصهم، وبالتالى نشاطهم فى مجال الخطاب الدينى ؟

هم أولئك الذين درسوا فى كليات شرعية على مناهج أهلتهم للقيام بالدعوة، كلٌّ فى المجال الذى تخصص فيه، وقد اشتملت هذه المناهج على علوم أساسية، وهى:

١. **الفقه**، والتأهيل فيه على مستويات عدة:

أ. دراسة مذهب معين، وهى تؤهل خريجين، يُدَرِّسُون هذا المذهب أو ذاك للتلاميذ فى المدارس، أو إعطاء دروس فى المساجد والمؤسسات الدينية فى مذهبه الذى تخرج فيه، ولا يصرح بأن آراء هذا المذهب هو الصحيح المطلق، وماعداها فهو باطل مطلق: بل يشير فى دروسه إلى أن هناك مذاهب وآراء فقهية أخرى قد تختلف عن مذهبه.

ب. التوسع فى دراسة المذاهب الفقهية المتعددة، وهى تؤهل الخريج لاختيار

الآراء التى تتفق مع طبيعة العصر، وتلائم نظام حياة من يخاطبهم، كما أن هذه الدراسة تؤهله لاختيار ما يستطيعه الناس، حتى لا يشق عليهم، امتثالا لقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥]، واتباعاً لقول رسول الله ﷺ : " **يسروا ولا تعسروا** "، وفى هذا الإطار يركز على الآراء التى لا تنفر غير المسلمين من الإسلام، وذلك بالابتعاد عما كان مرتبطاً بزمن معين، أو ملائماً لحالة معينة توارت، واختفت من المجتمع.

جـ. **أصول الفقه**، وهى دراسة قواعد استنباط الأحكام من النصوص الدينية، فمن يدرسها يكون مؤهلاً للفتوى، على أساس أن يلم بمدلول الأوامر، من حيث الوجوب والندب والاستحسان، ويعرف الفرق بين الضرورى، والحاجى، والتحسينى، وهو بذلك يكون قادراً على الفتوى، بشرط أن يلم بآيات الأحكام ويقف على آراء العلماء فى استنباط الأحكام منها، كما أنه ينبغى عليه ألا يصرح بأنه يتحدث باسم الإسلام؛ لأن المتحدث باسم الإسلام واحد فقط، وهو محمد ﷺ، أما ما يصل إليه العالم من أحكام، وما يبينه من آراء فقهية، فهو فهمه للنصوص الدينية، التى قد يختلف عنه فهم عالم آخر، والمسلم مخير بين تنفيذ ما يسمعه من أحكام مختلفة، طبقاً لعصره، وحالته، وقدرته.

٢ – **التفسير**، والتأهيل فيه يكون على مستويات عدة أيضاً:

أ. حفظ القرآن الكريم، ويؤهله لتحفيظ الصبية – وكذلك البالغين إن رغبوا – نصوص القرآن، فيعلمهم قواعد التلاوة بمواقفها: الوقف أولى، والوصل أولى، وجواز الوقف والوصل، وغير ذلك من أحكام القراءات، مثل: حركات المد والإمالة وغيرها، حتى تكون تلاوتهم لكتاب الله صحيحة، فيُحْفَظ اللسان

من اللحن فى التلاوة، وتتعود الآذان على تلقى آيات القرآن الكريم بصورة صحيحة.

ب. دراسة مختلف القراءات: الصحيح منها والشاذ، ومعرفة ما يقال فيها من: أن القرآن الكريم أنزل بهذه القراءات المتعددة على محمد ﷺ اعتماداً على ماروى من أن القرآن نزل على سبعد أحرف، مع معرفة الرأى الآخر القائل: بأن القرآن نزل بلغة قريش، لأن المخاطب به، وهو محمد ﷺ كان قرشياً، يتكلم بلهجة قريش، والمبلّغون الأوائل هم قرشيون، فنزل بلغتهم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وأجاز النبى ﷺ لكل قبيلة أن تتلوه بلهجتها !!!!!!

جـ. دراسة مناهج التفسير المختلفة، ومعرفة سبب هذا الاختلاف، ومدى تأثر الأحكام به، مع الإلمام بالخلفية الثقافية والاجتماعية للمفسرين، حتى تتضح له خريطة علم التفسير عبر العصور الإسلامية، وما طرأ على كل عصر، مبيناً أسباب هذا التغيير فى المناهج، ويتبين إمكانية التغيير فيها بما يلائم العصر الحاضر.

د. معرفة آيات الأحكام، بما تتضمنه من ناسخ ومنسوخ، على رأى من يقول بالنسخ، ومعرفة ما تتضمنه الآيات من معانٍ مختلفة، وحالات متفاوتة عند من ينكر النسخ، فيتقن كلا الرأيين وأدلتهما. كذلك يدرس المقصود من الأوامر والنواهى فى هذه الآيات، من حيث العام منها والخاص، بالإضافة إلى معرفة أسباب النزول وآراء العلماء فيها، حتى يقف على مناهج الفقهاء فى استنباط الأحكام من هذه الآيات، مع الإلمام بظروف العصر وثقافته، واتجاهات التيارات السياسية والعقدية، حتى يقف على تأثيراتها على العلماء الذين استنبطوا هذه الأحكام.

٣. **علم الحديث**، تبدأ دراسة هذا العلم بتحديد مصطلحاته، ثم ببيان تاريخ تدوين الحديث وجهود العلماء فى جمعه وتدوينه وفحص الرواية، وتأويل ما تعارض منها، مع عرض لكتب الحديث المشهورة، وبيان درجة صحتها، بالإضافة إلى مناقشة الاتجاهات الفكرية فى مدى قبول الحديث ونقده، ومنهجية اتفاقه مع القرآن الكريم، وعدم معارضته للقضايا الفكرية المتفق عليها، واتساقه مع معطيات العصر وأسس الحياة الإنسانية.

٤. **تاريخ الدعوة**، ويبدأ هذا التاريخ من وقت أن أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يبدأ بالدعوة إلى الإسلام، وذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١ – ٢]، فصدع للأمر، وبدأ تبليغ الرسالة بدعوة قريش إلى الإيمان بالله وحده وترك عبادة الأصنام، فآمن برسالته عدد قليل، وعارضه الكثير من أهل مكة. فتجب دراسة جهوده فى محاولة إقناع أهل مكة برسالة الإسلام، وإيذائهم له، ومجادلته معهم على مدى ثلاث عشرة سنة، أى يجب أن يلم بما حدث له معهم على امتداد هذا التاريخ، ونزول الآيات المكية بما تتضمنه من وعد ووعيد، وجدال ومناقشة، وصراع فكرى حول وحدانية الله واختياره لمحمد ﷺ رسولاً إليهم ليهديهم إلى الصراط المستقيم، ثم يوالى دراسة لتاريخ الدعوة مع انتقال الرسول إلى المدينة وما تلا ذلك من أحداث على صعيد نزول القرآن الكريم، والكفاح ضد المشركين، وتنوع الاحتكاك مع اليهود بين مجادلة فكرية إلى صراع مسلح، ويتتبع هذا التطور فى الدعوة على جميع مستوياتها حتى انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. ثم يتتبع المرحلة الثانية من تاريخ الدعوة بداية من عصر الخلفاء الراشدين إلى العصر الأموى فالعصر العباسى، فيدرس ما طرأ عليه من تغييرات، وما جدّ فيه من أحداث حتى يلم بأساليب الدعوة فى العصور المختلفة، ليتعلم منها ما يجب عمله فى المرحلة الراهنة، حت يؤدى رسالته على

الوجه الأكمل.

٥. **العقيدة.** مما لاشك فيه أن العقيدة هى صلب الدعوة وأساس رسالة الإسلام؛ إذ أن ما يُطْلَب من المرء هو أن يؤمن بأن الله واحد وبوجود الملائكة، ويصدق بكل الرسل الذين أرسلهم الله إلى الناس بكتب فيها تعاليمه من أوامر ونواه، كما يؤمن باليوم الآخر، يقول تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فمن يكفر بواحد من الأسس التى طلب الله من الإنسان الإيمان به، فقد خرج عن الإسلام، وذلك بضلاله وكفره، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، ولذلك يجب أن يتضمن منهج تأهيل الدعاة مادة: **العقيدة**، فيدرس الطالب فيها أسسها كما وردت فى القرآن الكريم، ثم اختلاف العلماء فى شرح تعبيرات القرآن الكريم عن جوانبها ومدلولاتها، وهذا يقوده إلى دراسة علم الكلام، وما احتواه من تيارات فكرية استعرت فى المجتمع الإسلامى بين الفرق الإسلامية المختلفة، وكيف أدى هذا إلى ظهور مذاهب شتى، وفرق متنوعة، واضعاً فى حسبانه أن هذه الفرق باختلافاتها وتشرذمها هى فى الواقع ظاهرة إنسانية، وُجِدَت فى كل الأديان والعقائد، سواء كانت سماوية أو بشرية، وأنها تعبر فى الفكر الإسلامى عن فهم أصحابها للنصوص الدينية، وبالتالى، فهى لا تخرج عن الإسلام مادام يؤمن أصحابها بأسس العقيدة التى بيناها سابقاً، ولذا ينبغى عليه أن يعرضها كتصور لفهم المسلمين للمبادئ والتعاليم الإسلامية، ولا يكفر أحدا منهم إلا إذا أنكر مبدأً أساسياً فى العقيدة الإسلامية بدون تأويل، ثم

ينبغى عليه أن يدرك أن هذا الاختلاف فى الرؤى دليل على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

١. **اللغة العربية:** من المعروف أن الطالب قد درس ما يكفيه فى مهنته المستقبلية من هذه المادة فى سنوات دراسته السابقة فى المعهد الدينى، فلا يحتاج إلى مزيد من دراسة قواعدها، ولهذا ينبغى أن تركز الدراسة فى هذه المادة على الجانب التطبيقى، فيدرب على كتابة مقال، أو تحضير درس فى تخصصه، أو إلقاء خطبة بعد تحضير عناصرها، فالتدريب العملى هو حجر الزاوية فى تأهيل الدعاة، إذ هو الأساس التى تقوم عليه مهنة الدعوة، وترتكز عليه ممارسة الخطاب الدينى.

هذه هى العلوم الأساسية التى ينبغى على مَنْ يُعَدّ لممارسة الخطاب الدينى أن يدرسها، بشرط أن يكون قد درس أسسها المختلفة فى المدارس الدينية، أى يكون قد أُهِّلَ لذلك عن طريق اجتيازه المراحل المدرسية فى المعاهد الدينية، حتى يُبْنَى هذا الصرح التأهيلى على أسس سليمة، فاجتياز المرحلة الدينية الأولى شرط للالتحاق فى المؤسسات (أو الكليات) التى تؤهل الداعية لدراسة هذه العلوم، وعليه فلا يصح لمن لم يتلق تعليماً فى المعاهد الدينية أن يلتحق بهذه الدراسة، أو يدرس بعض هذه العلوم فى مراكز ليلية، ثم يدعى أنه مؤهل لممارسة الخطاب الدينى.[1]

---

(١) يحضرنى فى هذا الصدد حكاية، سمعتها من أحد شيوخى فى معهد القاهرة الدينى، عن مفكر كبير من مفكرى القرن العشرين، ألا وهو الدكتور زكى مبارك، فقد دأب هذا المفكر على أن يحصل على عدة دكتوراة من كليات عدة، ولذلك كان يصدر اسمه فى مقالاته بـ " الدكاترة " زكى مبارك. أراد أن يحصل على الشهادة العالية من الأزهر، فتقدم إليها، وكان جائزاً أن يتقدم إليها من الخارج من يريد أن يحصل عليها، فلما وجهت إليه لجنة الامتحان أسئلة لم يستطع الإجابة عليها، أعطته ورقة تسجيل-

وبالإضافة إلى هذه العلوم يجب أن تكون ثقافة الداعية على نحو يؤهله للقيام بهذه المهمة على أكمل وجه، فدعوة غير المسلمين إلى الإسلام تقتضى أن يكون الداعية ملماً بثقافة من يدعوهم، مدركاً لطرق تفكيره، محيطاً بعاداتهم وتقاليدهم.

فهل نجد فى هؤلاء المتطفلين على مجال الدعوة فى مجتمعنا المعاصر من توفرت فيه هذه الشروط ؟

أعتقد أن غالبيتهم لا يملك القدرة على ممارسة هذه المهنة، لأنه لم يُعَدّ لها إعداداً كاملاً، فلم يُحَصِّل من أدواتها إلا الترر اليسير[1]، ولذا يجب عليهم عدم الخوض فى هذا المجال، لأن ما يقومون به فى مجال الدعوة يسيء إليها؛ فهو وإن كانت له آثار طيبة من بعض النواحى فى المجتمع، إلا أن ما ينتج عنه من غيوم تحجب سماحة الإسلام، وتخفى عن أنظار غير المسلمين – وكثير من المسلمين أيضاً — فاعليته فى مجالات العلوم الحديثة، وإمكانات إسهام من يتمسك به فى بناء الحضارة الحديثة فى جميع فروعها، مما يثقل كاهل الدعاة فى مواجهة التيارات الفكرية المعادية للإسلام.

-الدرجات، وطلبت منه أن يكتب الدرجة التى يستحقها بنفسه، فقال لهم: أنا لا أستحق النجاح، فأعترف برسوبى فى هذا الامتحان. ثم قال: لا يحسن الدراسة فى الأزهر إلا من بدأها من سنة أولى ابتدائى فى المعاهد الأزهرية.

(١) نرى كثيراً من الذين يسعون إلى الشهرة أو جمع المال، وقدرتهم لا تمكنهم من الحصول على ذلك بالعمل والإنتاج، يلجأون إلى الدين، فيقرؤون بعض الكتب الدينية، ويظنون أنهم بلغوا بذلك مبلغاً يؤهلهم للحديث فى الشئون الدينية، فيصدرون فتاوى لا تتناسب مع متطلبات العصر، ولا تتفق مع ظروف الحياة ذلك أنهم لا يعرفون غير ما قرءوه، وكثيراً ما يكون هو المتاح لقراءة عامة الناس، وهو من تأليف أصحاب الآراء المتشددة، والاتجاهات المتطرفة.

قد يقال: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - ويندرج تحته: ممارسة الخطاب الدينى — واجب على كل مسلم قادر على القيام بهذا الواجب إلا أن له تأثيراً سلبيًّا إذا مارسه من لم يُعَدّ عـميًّا للقيام بهذا الواجب، ولذا ينبغى على المثقف ثقافة غير إسلامية ألا يخوض فى المسائل الدينية إلا فى حدود ما اطلع عليه من كتب دينية، أو ما وعته ذاكرته بصورة جيدة مما يسمعه من العلماء المتخصصين، ولا يجوز له أن يخوض فيما ليس له به علم بدافع الغيرة على الدين، والحماس فى مجال الدعوة، فقد يترتب على ذلك آثار تضر الدعوة أكثر مما تخدمها، وخاصة فيما يتعلق بنظم الحياة الحديثة، بما فيها من تعقيدات حضارية، وما يطفو على سطحها من صور مستحدثة، وأشكال متعددة فى شتى المجالات.

ولهذا يجب على الشباب الذى لم يتخصص فى العلوم الدينية أن يخدم دينه، ويحمى عقيدته بالتفوق فى مجال تخصصه؛ فإن كان مهندساً، فما يقدمه للإسلام هو إتقانه لعمله، وتفوقه فى ميدان الهـدسة، حتى لا يحتاج المجتمع الإسلامى إلى طلب مساعدة من غير المسلمين فى هذا الميدان، ومثل ذلك الطبيب، والمحاسب، والاقتصادى، والزراعى.... و.....و.....إلخ، فإن قوة المسلمين فى هذه الميادين تحميهم من الوقوع فى مجال التأثير بالأجانب الذين يستعان بهم فى هذه المجالات التى أصبحت حيوية بالنسبة للحياة المعاصرة، فإن أراد بعد ذلك أن يكون له نشاط فى مجال الدعوة إلى الله، فليكن بسلوكه بين العاملين معه، وأخلاقه مع المتعاملين فى حقله، فإن لذلك صدى فى نفوسهم يفوق فى كثير من الأحيان تأثير خطب الوعاظ، ودروس علماء الدين.

وإن كان من عوام الناس فلا يجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا

فى المسائل المشهورة لدى العامة كشرب الخمر، والزنا، وترك الصلاة، والسرقة... وغيرها من الأمور التى لا تخفى على عوام الناس، أما ماعدا ذلك فلا يجب على العامى التصدى للمخالفين والمفسدين، خوفاً من تضليل الناس بفتاوى لا أصل لها فى الشريعة الإسلامية.

ما هى الوسائل التى يمكن بواسطتها عرض الإسلام عرضاً يناسب العصر، ويفى بما تتطلبه الحياة فى المجتمعات المعاصرة ؟

ذلك ما سنبينه فيما يلى:

مقدمة

تستقر النطفة فى رحم الأم صماء، لا هوية لها، فليس لها معالم تحددها، ولا صفات تبين كنهها وطبيعتها، ثم تتلقى عناصر تكوينها من البيئة التى استقرت فيها، فتتغذى وتتفاعل مع المعطيات التى تصل إليها عن طريق الأجهزة البيولوجية للأم، ويرى بعض العلماء أن هناك عناصر وراثية تنتقل إليها من صاحب النطفة ومن حاضنتها.

فإذا خرجت من الرحم كائناً بشرياً له صفات بيولوجية – ونفسية أحياناً — اكتسبها من المصدرين، غير أنه لم يزل فيه مساحة كبيرة بيضاء تحط البيئة الخارجية فيها ما لديها من معارف، سواء كانت عادات وتقاليد، أم ثقافة وفكراً. ومما لاشك فيه أن ما يتلقاه من البيئة يستقر فى وجدانه استقراراً ليس من السهل خلخلته، فضلاً عن تغييره، فعناصر تكوين الإنسان الفكرية والبيئية هى جزء منه، فمن أراد تعديل عنصر منها أو تغييره، فهو يحتاج إلى مجهود جبار؛ يتمحور فى محاولة تقطيع الخيوط التى تربطه بها، فمثله كمثل قطعة الحديد الممغنطة التى غُمِسَت فى برادة الحديد فتعلقت بها، فلن يستطيع المرء تخليص

قطعة الحديد الممغنطة من هذا البراد مرة واحدة، بل لابد من تخليصها جزئياً، قطعة وراء أخرى، فكذلك الإنسان، فهو مرتبط بأفكار وثقافات لايستطيع أحد أن يخلصه منها مرة واحدة، بل لابد من أن يبين له عدم جدواها فى حياته واحدة تلو الأخرى، حتى يتحول من واقع ثقافى وعقدى بالٍ ومهترئ إلى الواقع الجديد، الصحيح، الذى يهيئ له حياة أخرى أحسن وأفضل مما هو فيه.

فلو أدركنا هذه الصورة بأبعادها وجزئياتها وضح لنا مدى المشقة والعناء الذى لاقاه الأنبياء فى إقناع أقوامهم برسالتهم؛ إذ كان عليهم أن يزلزلوا عقل الإنسان حتى يتبين له ضلال ما عليه من عقائد وأفكار، ويقتنع بالرسالة الجديدة التى تأخذ بيده إلى ما فيه صلاحه فى الدنيا وفلاحه فى الآخرة، واستعملوا فى ذلك أساليب شتى، ووسائل متنوعة. ومن الأمثلة الواضحة فى هذا المجال مواجهة القرآن الكريم للمعارضين الذين كبلت العادات والتقاليد عقولهم، فهزها هزاً عنيفاً بحثه على القراءة والتفكر، واستعمال العقل والتدبر، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ويقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]

وشبيه بها مادة " **التذكر** "، وهى أيضاً من أعمال العقل، وقد جاءت مشتقاتها فى أكثر من مائة موضع فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: ١٢٦]

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧]

لقد هز الإسلام بهذه الآيات وأمثالها عقل الإنسان هزاً عنيفاً، فأيقظه من نومه – حيث كانت الأساطير تسيطر عليه، والأوهام والخرافات تكبله بأغلال لايستطيع منها فكاكاً، فظل أسير التقاليد الآسنة، والمعارف البالية، والأفكار البدائية دهوراً طويلة — وانتزعته من حالة الاستسلام والانقياد لما وجد عليه آباءه من معارف تعوقه عن التقدم، وتمنعه من الانطلاق إلى آفاق العالم الواسع، الذى يدعوه إلى إعمال العقل ليكشف أسراره، ويستمتع بما أودعه الله فيه من خيرات.

كانت هذه الآيات إيذاناً بأن عهد الاستسلام إلى المسلمات البالية قد انتهى، فلا مكان للسكون إلى الواقع الذى صنعته الأساطير والأوهام، فلا ينبغى للإنسان أن يرضى بما توارثه عن الآباء والأجداد، دون إعمال الفكر فيه، حتى يميز الخبيث من الطيب، ويتبين بعقله وفكره النافع من الضار، فهو دائم البحث عن الكمال الذى يليق بمعطيات الدين الجديد.

ولما كانت العادات والتقاليد متجذرة فى نفوس الـمُخَاطَبين، والعقائد والموروثات مسيطرة على وجدانهم، ومتمكنة من قلوبهم، فقد سلك القرآن الكريم، لتغيير هذه العقائد والموروثات، سبلاً شتى، ووسائل متعددة، بدءاً من ضرب الأمثال الحسية، ومروراً بالقصص والأحداث التاريخية، حتى إيقاظ العقل وتنبيهه إلى ما يعرض عليه بالأدلة العقلية التى كانت بمثابة المعاول التى تهدم البناء القائم على خرافات وأساطير، وغرس المبادئ والقيم التى تُخْرِج الإنسان من الأوهام والخزعبلات إلى الحقائق الوضاءة، التى تقوم عليها حياة استقرار النفس للأفراد، والأمن والطمأنينة للمجتمع، كى تستقر العادات والتقاليد على أسس

سليمة، وتقبل العقول والأفهام مبادئ تعاليم الدين الجديد، فيعيش أفراده فى أمن وأمان فى الدنيا، وينال الجزاء والثواب فى الآخرة.

استخدم المسلمون هذه الوسائل[١] فى إقناع الناس بتعاليم الإسلام، وحثهم على الالتزام بها، أسوة برسول الله ﷺ، فقد ضرب الرسول ﷺ المثل فى مخاطبة الناس على امتداد ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة، حيث كان المسلمون مضطهدين، وعشر سنين فى المدينة، حيث بنوا دولتهم، فتعددت الأساليب، وفى ذلك كله بيان للدعاة، كى يسيروا فى دعوتهم على منهج رسول الله فى كلتا الحالتين، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد، أو فى إطار المؤسسات، وسوف نبين هذه الوسائل بما يتفق ووضع المجتمعات الإسلامية، وبما يتناسب من الأساليب العصرية لتوصيل كلمة الله إلى الناس.

* * *

(١) الوسائل جمع وسيلة، والفعل: وَسَلَ يَسِلُ وسيلة: اسم مؤنث معناه: ما يتقرب به إلى الله وإلى الغير، أى هى الأداة، أو الأسلوب، أو الطريقة التى يتحقق بها غَرَض مُحَدَّد، فكل ما يتحقق به غرض معين فهو وسيلة. وتأتى بمعنى الدرجة، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة: ٣٥]، ويقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، والمعنى: يتقربون إلى الله بفعل الطاعات وترك المعاصى.

الوسائل الفردية

١. **الخطابة:** منذ وقوف النبى ﷺ على الصفا منادياً أهل مكة: أصبحت الخطابة من أهم وسائل الدعوة - إن لم تكن أهمها — فى تبليغ الإسلام، ومحو الأمية الدينية فى المجتمع الإسلامى، فهى ذات أثر كبير فى نفوس السامعين، يدفعهم - غالباً — إلى الإذعان لما يقوله الخطيب، والتسليم بما يعرضه من أحكام وتعاليم، فهى الوسيلة الأولى للداعية لتبليغ الناس قيم الدين وتعاليمه فى مجامعهم ومجالسهم، اقتداءً برسول الله ﷺ، إذ كان يغشى المجالس وأماكن تجمع الناس، ويخطب فيهم مبيناً لهم رسالة ربه، وداعياً إياهم بتصديقه، واتباع ما جاء به من رب العالمين، ومثال ذلك عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، جمع عشيرته، وخطب فيهم قائلاً لهم: " **إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت على الناس جميعاً ماكذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً، أو لنار أبداً** "[1].

فالخطبة من أهم وسائل تبليغ الدعو، وهى الوسيلة الأولى التى مارسها رسول الله ﷺ مع قومه، فكان يغشاهم فى مجالسهم وأماكن تجمعهم ويدعوهم إلى الإسلام، ويبين لهم أحكامه، وتعاليمه، وقيمه، ومن أشهر ما ورد إلينا فى هذا الصدد خطبة الوداع، فقد قال النبى ﷺ فيها: "..... **لأنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، ألا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام،**

---

(١) راجع مسند الشاميين جـ ٢ صـ ٦٦.

كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم، ألاهل بلغت "[١].

ومما زاد من أهميتها فرضُها على كل تجمع كإقامة صلاة الجمعة - على اختلاف بين الفقهاء فى العدد الذى يجب عليه إقامة هذه الفريضة -، فهى ركن من أركان إقامة صلاة الجمعة، يُخاطَب المسلمون فيها فيما يهمهم من شئون دينهم ودنياهم، ويعرض الخطيب عليهم مشاكلهم وأمور حياتهم اليومية طول الأسبوع، ولهذا فموضوعها يختلف من مدينة لأخرى، ومن حى لآخر، طبقا لمشاكل السكان، وأمور حياتهم الآنية، فهو يتناول ما يفكرون فيه، ويتحدث معهم فيما يشغلهم فى حياتهم، ومن هنا يجب أن يكون موضوع الخطبة عرض مشاكل الـمُخاطَبين، وبيان ما يجب عليهم اتباعه لحلها من الناحية الدينية، وما ينبغى عليهم سلوكه فى أمور دنياهم بما لا يخالف شرع الله، فإن خرج الخطيب عن هذا المنهج انصرف عنه الناس، لأنه لا يعكس ما يعيشونه، وما يفكرون فيه؛ فقد سمعت فى أوائل خمسينات القرن العشرين خطيباً يدعو بهذا الدعاء: " اللهم انصر ملك مصر والشام " فعلق عليه أحد المصلين بقوله: " كيف ذلك ياشيخ، ونحن لازلنا فى نزاع حول تبعيه السودان لنا "، كما قصَّ علىّ أحد الأصدقاء أنه سمع خطيباً فى أحد مساجد نجوع ريف مصر يتحدث فى خطبته عن حرمة شرب الخمر، وعقاب من يشربها فى الدنيا والآخرة، واستغرق هذا الموضوع الخطبة كاملة، فعقب عليه أحد المصلين بعد الصلاة بقوله: " كيف لنا ياشيخ بشرب الخمر، ونحن لا نجد الماء النظيف للشرب فكيف نحصل على الخمر ؟ ".

---

(١) راجع صحيح البخارى جـ ٢ صـ ٦١٩ رقم ١٦٥٢.

فهذا وأمثاله لم يدرك أن اختيار موضوع الخطبة مرتبط بالبيئة زماناً ومكاناً، وبالمشاكل التى يعانى منها الـــمُخاطَبين، كذلك ينبغى على الخطيب أن يبتعد فى تعبيراته عن الإسفاف فى القول، أو إيذاء أحد من المستمعين، وليكن رسول الله ﷺ أسوة له فى ذلك؛ إذ عندما كان يسمع عن شخص، أو قوم يمارسون ما يخالف شرع الله، أو يقولون كلاماً لا يتفق مع قيم الإسلام، ينهى عن هذا العمل دون أن يذكر اسم من ارتكبه؛ فقد ورد عنه أنه كان يقول فى مثل هذا المقام: " **مابال أقوام يقولون كذا..... أو يفعلون كذا...**" دون أن يعين من قال هذا أو فعله.

فيجب على الخطيب أن يلتزم بهذا كله فى خطبته، ولن يستطيع ذلك وينفذه على الوجه الأكمل، أى بما يتعلق به من أحكام وقيم إسلامية، إلا إذا كان مؤهلاً لذلك. وتأهيل الدعاة لهذا العمل لايتحقق بصورة كاملة إلا فى مؤسسات مختصة بذلك،كالأزهر الشريف، والكليات الشرعية فى أرجاء العالم الإسلامى، فلا يصح لمن درس فى معاهد ليلية، أو مراكز خاصة اعتلاء المنبر، لأنه ليس مؤهلاً لذلك، فهو، وإن كان قد درس بعض الكتب، فهذا لايؤهله لهذه المهمة، لأن دروبها عميقة لا يصل إليها إلا من ابتدأ دراسته الدينية من مراحلها الأولى، حتى يصل إلى الكلية المتخصصة، فتتسع مداركه فى هذا المجال بإلمامه لكل نواحى العلوم الإسلامية.

٢. **الدرس:** من أهم الوسائل فى تبليغ الدعوة؛ حيث يتيح للجمهور الاتصال المباشر بالداعية، والاستفسار عما يحدث فى البيئة المحيطة بهم من مشاكل دينية، ومسائل دنيوية لها صلة بالدين، أو متصلة بالأخلاق والقيم التى حث الإسلام على الالتزام بها، وقد يكون السؤال عن مظاهر وسلوكيات ظهرت حديثاً فى

المجتمع، ولا يعرف المؤمن الملتزم بمبادئ دينه وأحكام شريعته مدى قبولها أو رفضها إسلامياً، وكيفية مقاومتها، كل ذلك يتناوله الإمام فى درسه.

ويبدو من هذا العرض أن مقصودنا بالدرس هو مايقوم به الإمام فى المسجد، وليس مطلق درس، لأن ما يلقى خارج المسجد من دروس، سوف نتناوله عند الحديث عن الوسائل العامة، ومن هنا فالمقصود بالدرس هو ما يقوم به الإمام فى المسجد المعين به لتأدية شعائر الإسلام، فهو مرتبط بهذا المسجد، ولذا يجب عليه عند اختيار موضوع الدرس ملاءمته للأحداث التى تقع فى الحى، ومطابقته لثقافة المستمعين، ودرجة تحضرهم حتى يكون ناجعاً فى معالجة ما يمارسونه من أعمال، وما يصادفهم من مشاكل اجتماعية وأسرية. ولكى تعم الفائدة، فيجب أن يكون جدول هذه الدروس على النحو التالى:

أ. يوم الأحد يكون موضوع الدرس مادة: **الفقه**، فيدرس الإمام لجمهوره أحكام العبادات من: طهارة، وصلاة، وصيام، وحج، كما يتناول بالشرح أحكام الزواج والطلاق، والميراث، وذلك على مذهب واحد، هو مذهب أهل الحى، فإن تبين له أن أحد الجمهور ذكر الآراء المتعددة فليبين لهم ذلك مع الإشارة إلى أن المسلم مخير بين هذه الآراء؛ فهى لا تعدو أن تكون فهماً بشرياً للنص، يحتمل الصواب والخطأ. ويلتزم فى ذلك التيسير على المسلمين، إتباعاً لقول رسول الله ﷺ:" **يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**" كما يراعى فى فتواه حال الـمُسْتَفْتِى؛ فيختار من الآراء ما يناسبه، حتى وإن كان ذلك مخالفاً للرأى الذى يراه هو – أى الـمُسْتَفْتَى – صحيحاً.

ب. يوم الإثنين: **التفسير**: يختار الإمام الآيات التى تنص على تفضيل الله للإنسان وتكريمه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ

وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وتحثه على إعمار الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾ ﴾ [هود: ٦١]، مبيناً أن الله تعالى جعل العمل عبادة، فالمفروض على الإنسان تأدية الفرائض، ثم ينصرف إلى العمل الدنيوى، يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ١٠]؛ ذلك أن الفرائض وجبت على المرء لتقويم سلوكه، ويترتب على تقويم السلوك الانتشار فى الأرض لاستخراج ما فيها من كنوز ليستمتع بها الإنسان، ويؤدى هذا أيضاً إلى الإبداع و الابتكار فى مجالات الحياة المختلفة، حتى يبنى المسلم حضارة تعطى الدليل القاطع لغير المسلمين، بأن الإسلام دين حياة، ترتكز تعاليمه على تمكين الإنسان فى الأرض، وتحسين أساليب حياته، فلا رهبانية فيه، ولا تهاون ولاكسل فى شئون الحياة، بل جد واجتهاد، وابتكار للتطوير فى جميع مجالاتها.

فإن كان المستوى الثقافى للمستمعين عالياً فليختر الآيات التى تحث على البحث العلمى، مسترشداً فى ذلك بجهود العلماء عبر التاريخ الإسلامى، وابتكاراتهم فى مجال قواعد البحث العلمى، سواء كان نظرياً أو تجريبياً، ويؤكد على أن المسلمين لن يحافظوا على استقلالهم، ويؤمنوا هويتهم الإسلامية إلا بالبحث العلمى فى آفاق الكون، ومجالات مظاهر الطبيعة، وهيئة تكوين الإنسان من تركيبات بيولوجية، وظواهر نفسية واجتماعية.

جـ. يوم الثلاثاء: **الحديث**: فيختار من الأحاديث ما يدعو إلى الفضائل، ويحث على الالتزام بالآداب والقيم الإسلامية، ويوقظ فى المستمعين الجوانب

الروحية، حتى تطغى على الجانب المادى فيهم، أو على الأقل تُحدّ من سعارها، وتُطْفِئ وهجها فى النفوس، حتى تعتدل الكفتان فى سلوك الإنسان وتعامله فى مجالات الحياة المختلفة، فلا تطغى المادة على الروح، ولا يستغرق المسلم فى روحانية فيحرم نفسه من الاستمتاع بالماديات. فإن كان المستوى الثقافى للمستمعين مرتفعاً، فليجعل جانباً من هذا الدرس فى بيان تاريخ تدوين الحديث وجهود العلماء فى بيان درجاته، وما يمكن الاعتماد عليه، وما يُرْفَض منه للعلل فى السند، أو لمخالفته لنص مقطوع الدلالة فى القرآن الكريم، أو لمعارضته ما اتفق على صحته من المسلمات العقلية، وغير ذلك من مسائل علم الحديث.

د. الأربعاء: **السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى**: يتناول الإمام جهود الرسول ﷺ فى تبليغ الدعوة منذ بدء الوحى، وعنت المكيين فى قبول الإسلام، وإيذائهم له، مع ذكر ما حدث للمسلمين الأُوَل من تعذيب فى مكة، وأخبار هجرتهم إلى الحبشة، مسترسلاً فى ذلك حتى الهجرة إلى المدينة، فيشرح للمستمعين ما حدث بعد الهجرة من مناقشات ومحاورات مع أهل الكتاب؛ ويبين وقائع الغزوات مع ذكر أسباب كل غزوة، تتبعاً للأحداث حتى انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ثم يبين الأحداث فى عصر الخلفاء الراشدين، والعصرين: الأموى والعباسى، مشيراً إشارة بسيطة إلى بذوغ نجم الحضارة الإسلامية فى جميع مجالات الحياة. فإن كان المستوى الثقافى عالياً، فليشرح معالم النهضة العلمية فى المجالين: الدينى والدنيوى، وتقبل المسلمين العناصر الإيجابية فى الحضارات السابقة: يونانية، وفارسية، وهندية، وصبغها بالصبغة الإسلامية، مع بيان نشأة المدارس العلمية المختلفة: فقهية، وكلامية، وفلسفية وطبية بكل ما يتعلق بها من علوم، والتزام ذلك كله بالنصوص الدينية، أساساً لنظرياتهم،

واستنباطاً للأحكام الدينية فى مجالى العبادات والشئون الدنيوية، مع توضيح أسباب الخلاف بين العلماء، ومناقشاتهم ومناظراتهم حول المسائل الخلافية بينهم.

ولا يستطيع القيام بتنفيذ هذا الجدول إلا من تأهل تأهيلاً علمياً فى الأزهر الشريف، لأنه درس الفقه على مذهبه دراسة كافية، ودرس التوحيد بما يؤهله لفهم العقيدة الإسلامية، كما درس التفسير والحديث والتاريخ الإسلامى، كل ذلك درسه فى المراحل الدراسية الأولى، أى فى المراحل المدرسية، ثم تعمق فى الدراسات الإسلامية بكل فروعها فى المرحلة الجامعية، بالإضافة إلى منهج واسع مكنه من معرفة التيارات الفكرية التى ظهرت فى المجتمعات الإسلامية عبر تاريخ المسلمين زماناً ومكاناً أمده بثقافة واسعة شملت آراء العلماء وأفكارهم المختلفة، كما دُرِّبَ تدريباً كافياً يؤهله لمعرفة الثقافات المختلفة للشعوب الإسلامية وغير الإسلامية. ولن يصل إلى هذه الدرجة من التأهيل إلا من بدأ دراسته فى الأزهر من مرحلة الطفولة حتى نهاية المرحلة الجامعية، ويمكن لمن درس فى كليات شرعية فى العالم الإسلامى أن يصل إلى هذه الدرجة، إذا كانت دراسته السابقة على المرحلة الجامعية فى مدارس تشتمل مناهج دراستها على العلوم الإسلامية، من: فقه، وتفسير، وحديث، وتوحيد، وتاريخ إسلامى، حتى يمكن أن تقوم مناهج هذه الكليات الشرعية على أساس إسلامى شامل وعميق، مما يجعل تأهيل هذه الكليات لمن يمارس هذه المهنة تأهيلاً يمكنه من تأدية عمله فى الوعظ والإرشاد على وجه أكمل.

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أمور أساسية، ينبغ على الإمام الالتزام بها، وهى:

- ينبغى على الإمام ألايقتصر على ما حصله من معلومات ومعرفة فى العلوم الإسلامية فى سنى دراسته، بل يجب عليه مداومة الاطلاع فى المصادر الإسلامية المتنوعة، وتراث الفكر الإسلامى، حتى لا تتكلس معلوماته فتنضب ويصل إلى درجة العجز عن تأدية رسالته، أو تضعف لدرجة تصل إلى حد الإضرار بالإسلام.

- يحتوى الفكر الإسلامى على آراء متعددة فى المسألة الواحدة، فلا يصح بحال من الأحوال أن يختار الإمام منها ما هو متشدد، بل ينتقى منها ما يلائم العصر، ويسهل تنفيذه فى المحيط الاجتماعى الذى يعيش فيه، لأن كل الآراء تحتمل الصواب والخطأ، فالأولى أن يسهل على الناس، إمتثالاً لقول رسول الله ﷺ:" **يسروا ولا تعسروا** ".

- لا يجوز رمى الآخر بالكفر إذا خالف رأيه جمهور المسلمين؛ إذ مادام المرء ملتزماً بالأساسيات التى تفصل المسلم عن الكافر (وهى الإيمان بنص القرآن وبالسنة العملية والحديث المتواتر) فهو مسلم، له ماللمسلمين وعليه ما عليهم، فساحة الإسلام متسعة، تحتوى جميع الفرق الإسلامية، مادام أصحابها ملتزمين بما طُلِبَ من الإنسان الإيمان به حتى يكون مسلماً، وماعدا هذا فاختلاف الآراء وتفاوتها فى فهم النصوص لا يخرج المسلم عن إيمانه.

- ينبغى على الإمام ألا يعتبر أن ما يقوم به فى مجال الدعوة، هو فى مقابل ما يحصل عليه من مرتب؛ فالقيام بالدعوة واجب على كل مسلم قادر ومؤهل لهذه المهمة، وهو مؤهل لها، فيجب عليه القيام بهذا العمل بصرف النظر عن الجوانب المادية، فما يحصل عليه من مرتب، هو فى مقابل انشغاله بهذا العمل إلى درجة لا تمكنه من تحصيل قوته وقوت عياله، فهو كما قال الفقهاء: " المرتب مقابل الحبس على هذا العمل، وليس أجراً له "، ولكن يجب على الدولة أن

تعطيه مايكفيه حتى يتفرغ للدعوة، ولا يلجأ إلى أعمال أخرى ليسد بها نفقاته ونفقات من يعوله.

- يجب على المؤسسات والهيئات التى تشرف على المساجد أن تنشئ مكتبة فى كل مسجد، تضم أمهات الكتب فى الفكر الإسلامى، وبعض ما تخرجه المطابع فى العلوم الإسلامية، كى يرجع إليها الإمام ليجدد معلوماته، ويطورها حتى يسهل عليه القيام بواجبه دون إعاقة أو تشويه.

٣. المناظرة والحوار: مناقشة المعاندين للإسلام، والرافضين للتسليم بما جاء به رسول الله ﷺ من رب العالمين هى أول ما مارسه رسول الله ﷺ مع كفار قريش عارضاً عليهم ما أوحى به ربه إليه من حجج وأدلة تسفه عقائدهم، وتبين ما هم عليه من ضلال، وتتحداهم أن يأتوا بمثل ما أنزله الله عليه، أو بسورة مثله؛ فمعظم آيات القرآن الكريم تناقش المعارضين بالحجة والبرهان، بعضها يخاطب العاطفة والوجدان، والبعض الآخر يهز العقل للتفكير فيما يُعْرَض عليهم، ومقارنته بما هم عليه من عقائد فاسدة، وعادات بالية، وسلوك يدمر حياتهم. ولا يسع المقام لذكر الصور التى عرضها عليهم فى إطار القصص، أو ضرب الأمثال، أو مخاطبة العقل بمسلمات لا يستطيع رفضها، ولذلك سنكتفى ببعض الآيات التى تدعو العقل إلى التفكير فيما يعرض عليه، يقول تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣ -

٧٤]، ويقول على لسان مؤمن فرعون: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: ٤١ – ٤٥]، وغير ذلك من آيات القرآن الكريم التى خاطب بها الله – ولا زال يُخاطَب بها – من ينكر شرع الله ويكفر بما أُنْزِلَ على محمد ﷺ.

توالى نزول الآيات على محمد ﷺ ليخاطب بها الكفار، ويدخل معهم فى مناظرات لإثبات أن الله واحد، وأنه رسول الله، فتعلم المسلمون هذا الأسلوب فى جدال غير المسلمين، ومن الأمثلة الأولى على ذلك ما قاله جعفر بن أبى طالب للنجاشى: " أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه ــ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده....."

وبعد الفتح اختلط المسلمون بأقوام ينهجون فى المناقشة المنهج العقلى، فدخل المسلمون معهم فى مناظرات ومناقشات على أساس من المسلمات العقلية تمركزت على مبادئ فلسفية، وصور منطقية، ونظريات تجريبية فتغلبوا عليهم، وما كانت لهم تلك الغلبة إلا بدراسة هذه العلوم، فدرسوا الفلسفة، واستوعبوا المنطق، وألموا بما عند القوم من العلوم والمعارف، فاستطاعوا بذلك أن يدافعوا عن الإسلام بسلاح المعارضين، وأن يتغلبوا عليهم بما عندهم من أدوات منطقية،

ومعارف، ونظريات فى مختلف العلوم والمعارف.

ولم تقتصر المناظرات على ما يعقد فى هذا المجال بين المسلمين وغير المسلمين، بل كانت أيضاً بين المدارس الإسلامية المختلفة فى آرائها وتوجهاتها فى استنباط الأحكام؛ إذ دار النقاش بين أهل الحديث وأهل الرأى، كما استعر الجدل بين الفرق الكلامية من: قدرية، وجبرية، وأشعرية...وغيرها من مدارس الفكر الإسلامى المختلفة، فخلف لنا هذا كله ثروة من الآراء والأحكام بأدلتها وعللها، أمدت المسلمين بصور شتى، ومسائل متنوعة، سهلت لهم تطبيق أحكام الشريعة دون عنت أو مشقة، وساندت حججهم وأدلتهم فى مواجهة المعارضين للإسلام، أو المنكرين لتطبيق الشريعة الإسلامية فى المجتمع المعاصر.

لم تتوقف هذه المناظرات عبر تاريخ المسلمين، بل اشتدت وتشعبت فى مختلف مناحى الحياة، وامتدت على امتداد الأقطار الإسلامية؛ فحيثما وجد مسلمون مع غير مسلمين إلا وظهرت المناوشات الفكرية، والمناظرات الجدلية حول العقائد والقيم الإسلامية، ومقارنتها بما عند القوم من مسلمات عقدية، وفلسفات إنسانية، ومبادئ قانونية، ونظريات اجتماعية، ومعالم حضارية، واستمر هذا حتى العصر الحديث حيث غزت قيم الغرب وفلسفاته كثيراً من المجتمعات الإسلامية، فظهر على الساحة الفكرية ما أُطْلِقَ عليه "الغزو الفكرى"، صال فيه كثير من الكتاب المسلمين وجالوا، ما بين معارض لانتشار الفكر الدخيل فى المجتمع الإسلامى، فأطلق عليه غزواً فكرياً، وبين من رأى أنه من قبيل تلاحم الثقافات، فيجب على المسلمين قبول ما هو إيجابى، ورفض كل ما هو سلبى، أو ما هو مناقض لنص قرآنى قطعى الدلالة، كما فعل المسلمون الأُوَل إزاء الثقافات اليونانية والفارسية والهندية؛ فقد أخذوا منها ما هو مفيد، وتركوا

ما يتنافى مع قيم ومبادئ الإسلام، فهضموا المقبول منها وصبغوه بصبغة إسلامية، فكان ذلك عنصراً هاماً فى قيام الحضارة الإسلامية.

أنتج هذا التراع ظاهرة جديدة بزغت فى المجتمعات الإنسانية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وهى مأ أطلق عليه " **حوار الأديان** "، فعقدت ندوات ومؤتمرات، محلية وعالمية، حول هذا المصطلح، فتشعبت معانيه، وكثرت موضوعاته، فاختلطت الآراء وتشابكت، حتى أصبح من العسير – إن لم يكن من المستحيل – توضيح الهدف من هذه اللقاءات، وبيان ما يجب بحثه بين المختلفين عقائدياً، وبين ما لايجوز طرحه للمناقشة.

وإزاء هذا الوضع نرى أن حوار الأديان أصبح ضرورة فى العصر الحديث؛ لأن المجتمعات المعاصرة ضمت العديد من الأفكار والعقائد والمذاهب الفكرية، بل إن المجتمع الواحد المحدود، قد يضم أكثر من عقيدة، ويعتنق أفراده أكثر من مذهب فى جميع المجالات: سياسية، واقتصادية، واجتماعية...و...و...الخ، ولذا كان الحوار فى حد ذاته مطلباً حيويًّا وضرورة قصوى، وعلى الأخص: **حوار الأديان**، لأن الدين لازال يلعب دوراً كبيراً فى حياة الشعوب، إذ يرسم للفرد أسلوب حياته، ويحدد له طبيعة العلاقة مع الآخر، وبالتالى فهو عنصر أساسى فى استقرار المجتمعات، ورسم حدود العلاقات بين الشعوب، حتى فى المجتمعات التى أعلنت أن العلمانية هى أسلوبها فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ فقد رأينا أن نزعة التعصب الدينى، والتبشير بقيام صراع بين الحضارات على أساس ثقافى **ودينى** صدرت من مجتمع يعتبر نفسه زعيم العلمانية فى العصر الحاضر، إذ أعلن صمويل هنتنجتون – وهو أمريكى نشأ على الثقافة العلمانية – فى كتابه "صدام الحضارات" أن الصراع فى العالم الجديد لن يكون

أيديولوجياً، أو اقتصادياً، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر، والمصدر الغالب للصراع **ثقافياً، ودينياً:**

– مركزاً فى كثير من صفحات كتابه على أن الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية واقع لامحالة، فهو – أى الإسلام – الخطر الماثل أمام أعين الغرب " المتحضر "، يبدو ذلك واضحاً من قول أحد المراقبين حسب زعمه:

– **الكابوس الخاص للأوربيين هو الذكرى التاريخية (إغارة المسلمين فى أوربا الغربية، والأتراك على أبواب فيينا)** "[1]

– ومبيناً لهم ما يحدث فى تركيا، حيث يقول: " بالنسبة لتركيا – كما هو لدول أخرى كثيرة – أثار انتهاء الحرب الباردة بالإضافة إلى الخلل الناتج عن النمو الاقتصادى والاجتماعى قضايا أساسية عن " الهوية القومية والانتماء العرقى "، وكان **الدين** هناك يقدم الإجابة، وأصبح الميراث العلمانى الأتاتوركى والنخبة التركية لثلثى قرن، تحت النيران وبشكل متزايد. تجربة الأتراك فى الخارج أدت إلى إثارة عواطف الإسلاميين فى الداخل. الأتراك العائدون من ألمانيا الغربية " كان رد فعلهم على العداء هنا هو العودة إلى ما هو مألوف، **وأن ذلك هو الإسلام** "[2].

بل إنه يؤكد فى مواضع عدة من الكتاب على أن الصراع بين الحضارتين: الإسلامية والغربية، مستمر: هناك خصومة بين القيم العلمانية والقيم الإسلامية، وهناك خصومة تاريخية بين الإسلام والمسيحية، وهناك شعور بالغيرة من القوة

(١) صدام الحضارات صـ ٢٣٨

(٢) المصدر السابق صـ ٢٤٠

الغربية، وهناك استياء من السيطرة الغربية الناجمة عن بنية الشرق الأوسط السياسية بعد زوال الاستعمار، وعندهم – أى المسلمين – شعور بالمرارة والامتهان نتيجة المقارنة البغيضة بين إنجاز الحضارتين: الإسلامية والغربية فى القرنين الأخيرين " طالما أن الإسلام يظل (وسيظل) كما هو، والغرب يظل (وهذ غير مؤكد) كما هو الغرب، فإن الصراع الأساسى بين الحضارتين الكبيرتين وأساليب كل منهما فى الحياة سوف يستمر فى تحديد علاقتهما فى المستقبل، كما حددها على مدى الأربعة عشر قرناً السابقة..... إن حرباً مجتمعية باردة مع الإسلام سوف تساعد على تقوية الهوية الأوربية بشكل عام، فى وقت حاسم بالنسبة للوحدة الأوربية. ومن هنا قد يكون هناك مجتمع فى الغرب مستعد، ليس لدعم حرب مجتمعية باردة فقط مع الإسلام، بل ولتبنى سياسات تشجع عليها. فى سنة ١٩٩٠م قام " برنارد لويس"، وهو مفكر غربى بارز مهتم بالإسلام، بتحليل " **جذور الغضب الإسلامى** " واستنتج قوله: " يجب أن يكون واضحاً الآن أننا نواجه حالة وحركة تتخطى بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التى تتابعها، وهذا ليس أقل من صدام حضارات، والذى ربما كان غير منطقى، ولكنه بالتأكيد رد فعل تاريخى لتنافس قديم ضد تراثنا اليهودى المسيحى وحاضرنا العلمانى، وانتشار كل منهما على مستوى العالم، ومن المهم جداً أننا من جانبنا لا يجب أن نستثار إلى رد فعل تاريخى ولا منطقى معادل ضد ذلك المنافس."[١]

كان من الطبيعى بعد ظهور هذه الفكرة، صراع الحضارات على الساحة الثقافية العالمية أن يتصدى المفكرون من المسلمين لهذا الطرح غير السليم –

(١) المصدر السابق صـ ٣٤٣ - ٣٤٤

منطقياً، وفكرياً، وتاريخياً -، موضحين أن تعاليم الإسلام تدعو إلى الحوار لا إلى الصدام، ويبدو ذلك واضحاً من آيات القرآن الكريم ومن أحداث التاريخ الإسلامى، فالإسلام يحث المسلم على الاعتراف بالآخر والحوار معه، لكى يعيش الإنسان آمناً على دينه، مطمئناً على حياته، واثقاً من صدق المشاعر بينه وبين أخيه الإنسان، وإن اختلف معه فى الدين والعقيدة، وبهذا احتل الحديث عن هذا الحوار وضرورة التعاون على المستوى الإقليمى والدولى مساحة كبيرة فى دوائر الفكر الإسلامى، بكل أنواعه: من الكلمة المكتوبة إلى الصوت المسموع، إلى الصورة المرئية، منددا باتهام المسلمين بأنهم أعداء الحضارة الحديثة، معلناً استعداد المسلمين للحوار على جميع المستويات، وفى كل المجالات التى تتعلق بحياة الإنسان وسلامته، وباستقرار المجتمعات وأمنها.

بدأ الحوار مع الآخر، فعقدت العشرات من الندوات والمؤتمرات فى أماكن شتى فى أرجاء المعمورة، دون أن يعرف أحد من المسلمين المتحاورين ماهية الموضوعات التى يقوم عليها الحوار، ولاطبيعة الأهداف التى يريدون الوصول إليها. لقد عقدت حتى الآن عشرات الجولات من الحوار الإسلامى – المسيحى فى عواصم متعددة اتخذت شكل مؤتمرات، وندوات، وحلقات دراسية، ولقاءات مشتركة، وألقيت فيها بحوث حول السلام والتعايش السلمى، والأخوة الإنسانية، كما تبودلت كلمات تنضح بالعطف والمودة والرحمة الإنسانية، وتحددت فى بعضها – وهو قليل جداً – بعض الموضوعات التى تتصل بالتعايش السلمى – وغالباً ماكان الجانب المسيحى هو الذى يختارها – ولكن لم يصل المشاركون فيها إلى نتائج ملموسة، يمكن تنفيذها أو رؤيتها على أرض الواقع، فهى – غالباً – لا تعدو أن تكون اجتماعات للكلام وتبادل التحيات الرسمية.

ولهذا ينبغى أن يحدد أسلوب الحوار، ومنهجه، وقضاياه، والأهداف التى يريد المتحاورون الوصول إليها. أما **أسلوب الحوار** فينبغى أن يكون على النحو التالى:

١. لا يكون الحوار متكافئاً إلا إذا كان بين قوتين متعادلتين يعترف كلٌّ منهما بالآخر، إذ يحدث التصارع عندما تجعل إحدى الثقافات من نفسها الثقافة العظمى، بينما كل الثقافات الأخرى ثقافات صغرى، ويظن أصحابها أن ثقافتهم أعلى وأعظم من الثقافات الأخرى، الثقافات الصغرى. نحن نعيش فى القرن الواحد والعشرين، حيث تواجه البشرية نظاماً عالمياً جديداً، فهل يوجد فى هذا النظام أرضية مشتركة، يقوم عليها الحوار بين الحضارات والثقافات المختلفة ؟ وكيف تبدو هذه الأرضية المشتركة فى عالم يريد أن يعيد نظام الهيمنة القديم فى ثوب جديد، تحت شعارات مختلفة ؟ إن الحوار لن يكون مثمراً فى هذا الجو إلا إذا تحقق شرط أساسى، ألا وهو الاعتراف المتبادل بالتقاليد المميزة للحضارة الإنسانية. قد يكون هذا أمراً صعباً على أولئك الذين يمارسون الهيمنة على العالم، وليس عندهم الاستعداد للتنازل بأنهم الأقوى، والأكثر تفوقاً فى مجال التكنولوجيا، ولكنه شرط بالغ الأهمية، إذا كان الطرفان صادقى النية فى الوصول إلى صيغة مشتركة للتعايش السلمى. إن تحقيق السلام فى العالم يتوقف على تحقيق السلام بين الأديان، ولن يتحقق السلام بين الأديان إلا بإجراء حوار بين أصحاب هذه الأديان، ومن شروط نجاح أى حوار على أى مستوى أن يكون كل من طرفى الحوار نداً للآخر، وهذا يعنى ضرورة تحقيق المساواة التامة بينهما فى كل ما يتعلق بالحوار المراد إجراؤه بين الطرفين.

٢. عدم المساس بالعقائد فى جلسات الحوار، وهذا لا ينفى ترك أو إهمال

الدراسات العقدية فى المدرجات الجامعية، وفى حلقات النقاش الأكاديمية، فذلك مرفوض رفضاً باتاً، لأن الأديان بالنسبة لأصحابها حقائق مطلقة، لايجوز تعديلها، أو التنازل عنها، فالانتقاص من الإيمان، ولو قيد شعرة أو أكثر، يخل به، ويفقده حقيقته، وبالتالى لا يكون إيماناً. فهل عند الغربيين استعداد للتنازل عن بعض عقائدهم المسيحية ؟ لا أظن ذلك، بل العكس هو الصحيح؛ إنهم ينتظرون من المسلمين أن يتنازلوا عن بعض مسلماتهم، كما حدث فى إحدى ندوات الحوار التى عقدت بالقاهرة؛ إذ اعترض المسيحيون المشاركون فى الندوة على تركيز المسلمين على موضوع القدس، وهو من المقدسات الإسلامية، كما أنكر بعضهم وصف الإسلام بالربانية، وأصروا على موقفهم إزاء الإسلام، من ناحية أن محمداً ليس نبياً، ولا كتابه كتاباً إلهياً.(١) ولهذا يجب على المتحاورين أن ينحوا مسائل العقيدة جانباً، ويركزوا فقط على المسائل الأخلاقية المشتركة لينطلقوا منها إلى منهاج للتعايش السلمى. وليس الهدف من الحوار الوصول إلى موقف وسط بين العقائد، أى الوصول إلى توفيق تلفيقى، يقوم على اتخاذ موقف نسبى عام، بل أساس اللقاء التفاهم، ومعرفة كلٍّ ما عند الآخر، وتصحيح للمعلومات غير الصحيحة عند كل طرف عن الطرف الآخر. ثم إن الحوار يكشف لصاحب الدين أو العقيدة — من خلال دين الآخر، أو عقيدته، أو ممارسته لها – مفاهيم جديدة، وأساليب للممارسة تضيق المسافة بين المبدأ والتطبيق، تساعده على الاقتراب من مثله الأعلى... ففى الحوار نكتشف التكامل: العطاء والأخذ، الإثراء المتبادل. حينئذ يصير من الممكن الاعتراف بأن الآخر مصدر للإلهام وللقوة، وينتفى التعالى الذى يستند إلى شعور بالكمال

(١) علماء الإسلام يردون على هجوم اجانب المسيحى بندوة الحوار صـــ ١ على شبكة ليلة القدر.

والاكتفاء الذاتى. بل يكتشف كل واحد أنه يحتاج إلى الآخر....مع الاحتفاظ بهويته. فينظر الواحد إلى الآخر على أن كل واحد لديه شيء يتعلمه من الآخر ويستفيد به، وأن لدى كل واحد أيضاً شيء يقدمه، فتنحل عقدة التفوق التى تعطل تبادل الفكر والتفاهم.(١)

٣. الاعتراف المتبادل، فكما أن المسلم يعترف بوجود عقائد أخرى ويسميها ديناً، وإن لم يؤمن بها لاعتقاده أنها باطلة، فكذلك يجب على من يتحاور مع المسلمين الاعتراف بالإسلام ديناً، فإذا تعذر ذلك، فلا أقل من احترام تعاليم الإسلام وقيمه، كما تحتم قواعد الحضارة الحديثة على الإنسان المتحضر أن يحترم تقاليد وعادات الآخر، وإن كانت فى رأيه لا تتفق مع المنطق والعقل. فإذا تعذر ذلك على بعض المتشددين، فلا مانع من إجراء حوار لمنع المواجهة المسلحة بينهم وبين المسلمين، ولإرساء قواعد ومبادئ للتعايش السلمى بين الناس جميعاً، بشرط أن تكون لغة الحوار مؤدبة، وأن يلتزم المتحاورون بالموضوعية، بعيداً عن المهاترات والألفاظ التى تجرح شعور الأطراف المتحاورة.

٤. احترام كل طرف من أطراف الحوار ثقافة الآخر وعقيدته، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ [الحجرات: ١٣]، فالاتصال الثقافى يجب أن يقوم على أساس تبادل المعلومات والخبرات، لا بقصد هيمنة ثقافة على أخرى، أو فرض تقاليد شعب على آخر؛ فلا يجوز لطرف أن يملى على الطرف الآخر ما يجب عليه عمله فى مجال الثقافة، أو فى مناهج التعليم فى مراحله المختلفة، أو فى توجيه الرأى العام، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة: المقروءة، والمسموعة، والمرئية، فإن ذلك كله

(١) وليم سليم: حوار الأديان صـ ١٧٣ - ١٧٤

من خصوصيات كل أمة، فلا يخضع لتوجيهات خارجية، أو إملاءات أجنبية. فإن احتاجت إلى تطويرٍ لمواكبة العصر، أو تعديلٍ لتلافى عجز فيها، فينبغى أن يكون ذلك نابعاً من شعور داخلى، ليأخذ طريقه فى إطار الهوية، بحيث لا يخرج عن التعاليم الدينية، ولا يبعد عن القيم والمبادئ الأخلاقية، ولا ينحرف عن العادات والتقاليد المرتبطة بالتاريخ والروح الإسلامية. ومن هنا يجب أن يرفض رفضاً باتاً كل إشارة أو تلميح إلى وجوب حذف آيات قرآنية بعينها من المناهج التعليمية، أو إهمال أحداث تاريخية تدين مجموعة بشرية معينة، لأن ذلك — لو حدث — يتنافى مع أهم شرط من شروط الحوار الإيجابى، ألا وهو عدم تدخل أى طرف فى الشئون الخاصة التى تتعلق بهوية الطرف الآخر وثقافته وعقيدته.

٥. الاعتراف بالأصل الواحد للخليقة كلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ [النساء: ١]، فلا يتعالى جنس على آخر، ولا يُفَضَّل شعب بسبب اللون، أو الجنس، أو العقيدة، أو بسبب قدراته العسكرية، أو الاقتصادية، أو العلمية والثقافية.

أما منهج الحوار فيجب أن يكون على النحو التالى:

١. نسيان الماضى بما فيه من صراعات وأحداث مؤلمة، قدتفجر — لو لم تنس — النفور بين المتحاورين، وتلقى بظلال قاتمة على جوّ الحوار، فتحفز كل طرف ضد الآخر، ملقياً بالشكوك فى كل ما يطرح من قضايا ومشكلات على مائدة الحوار.

٢. حرية العقيدة، يقول تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فلا يجوز لأحد أن يفرض عقيدته على الآخرين بالقوة، بل يُتْرَك الأمر للناس، يعتنقون ما يرونه صحيحاً، دون ضغط أو إكراه.

٣. إتباع المنهج العقلى فى طرح القضايا والمشكلات، وسبل حلها؛ لأن العقل هو القاسم المشترك بين الناس جميعاً، على اختلاف مللهم ونحلهم، فهو أقرب المناهج لالتقاء الناس، مختلفى العقائد والملل، وهو أقصر الطرق للوصول إلى رسم منهج مشترك للتعايش السلمى.

٤. عقد ندوتين سنوياً، يفصل بينهما أربعة أشهر، تُخَصَّص للإعداد الجيد، وذلك باختيار موضوع واحد، يُستَكْتَب فيه علماء ومفكرون على مستوى عالٍ جداً، ثم تناقش أوراقهم فى الندوة، بحيث تخرج المناقشة فى صورة ورقة واحدة، تجمع ما فى الأوراق كلها من أفكار ومبادئ. ثم يُعْقَد مؤتمر تناقش فيه الورقتين اللتين أعدتهما الندوتان، ولا يعقد هذا المؤتمر إلا بعد مرور أربعة أشهر على عقد الندوة الثانية، يكون العمل فيها مُرَكَّزا على استخلاص ما فى الورقتين فى ورقة واحدة، تُعْرَض على المؤتمر، ثم يخرج منه بيان بالمبادئ التى اتفق عليها المؤتمرون. وإن لم يحدث ذلك كانت لقاءات الحوار الدينى بلا هوية تعرف بها ولا طابع يميزها، ولا نتيجة من ورائها تجنى الشعوب ثمرتها.

٥. يُكَوَّن جهاز إدارى تكون مهمته العمل بكل الوسائل على تفعيل ما صدر عن المؤتمر من مبادئ وتوجيهات على كل المستويات الإقليمية والدولية، ولو اقتضى الأمر رفعها إلى المنظمات الدولية لإصدار قرارات مُلْزِمَة بتفيذ هذه المبادئ، فيجب القيام بذلك، وإلا أصبحت جلسات الحوار الدينى عبارة عن اجتماعات شكلية، وتوصيات ونتائج لا تتعدى كونها كلمات سُطِّرَت على ورق، و بالتالى تصبح لقاءات فاشلة، لا فائدة فيها، اللهم إلا تعطيل مصالح المسلمين، وتضييع الوقت فى مباريات كلامية، وخطب جوفاء لا مدلول لها[1].

(١) راجع كتابنا: حوار الأديان !

موضوعات الحوار

لاشك أن موضوعات الحوار الدينى، التى يجب وضعها على مائدة البحث كثيرة كثرة تجعل من المستحيل حصرها، لأنها تتعلق بحياة الأفراد، وحياة الشعوب. وعلى الرغم من كثرة عناصرها الماثلة أمامنا، فهى أيضاً متجددة، ومتطورة، وخاصة فى العصر الحديث، عصر التكنولوجيا، وعصر ما بعد الحداثة، الذى يُخْرِج لنا كل يوم من الأطروحات وما يتبعها من مشاكل ما يدفع أجهزة الرصد إلى العمل بأقصى سرعة لملاحقتها وتقييمها. ولكن هذا لا يمنع من تناول أهم ما فيها، وأكثر إلحاحاً لضبطه وتصويبه، لتستقيم العلاقة بين الشعوب على أساس سليم، يسعد الأفراد، ويساعد على ازدهار الأمم وتقدم المجتمعات.

ومن اللافت للنظر أن بعض القضايا قديم قدم قيام المجتمعات الإنسانية، على الرغم من تطوير مفهومها، وتنوع مضامينها بتطور الحياة الإنسانية، وأخري أفرزها التقدم الحضارى والاكتشافات العلمية. ويجب على المتحاورين أن يقدموا – فى قائمة موضوعاتهم – الأهم على المهم، حتى يسهموا فى الإسراع بمحاولة حل المشاكل التى تتعلق بحياة الناس، أفراداً وجماعات.

ومن أهم الموضوعات التى يجب بحثها:

قضايا الإنسان

فقد كرمه الله – كما أخبرت بذلك كل الكتب المقدسة –، وركزت على تكريمه معظم – إن لم يكن كل – الاتجاهات الفكرية فى كل العصور والأزمان، لذا يجب أن توجه الدعوة إلى بحث ما يجب عمله لحفظ حياته، أياً كان لونه، أوعقيدته، أوجنسه، فلا ينبغى أن يستعلى إنسان على أخيه، أو يظلمه باغتصاب

حق من حقوقه المشروعة: حفظ النفس، والدين، والعقل، والنسل، والمال. كذلك لاينبغى أن يهان، أو يذل من ثقافة أخرى على أى مستوى: ثقافى أو إقتصادى، أو سياسى، أو اجتماعى، وعليه فيجب أن يكون موضوع **حقوق الإنسان** أول ما يوضع على مائدة الحوار الدينى، من حيث **حرية العقيدة**، يقول الله تعالى: " **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..** " [البقرة: ١٥٦]، فلا يجوز لأحدأن يفرض عقيدته على الآخر بالقوة، بل يُتْرَك الأمر للناس، يعتنقون ما يرونه صحيحاً، دون ضغط من أى نوع. **والعدل**، يقول تعالى: ﴿.... **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى....**﴾ [المائدة: ٨]، ومن مقتضيات العدل حق كل شعب فى أن يعيش فى وطنه دون اعتداء عليه من أى نوع، أو محاولة للسيطرة علي مقاليد أموره. **وحرية التعبير** لأن التقييد فى هذا المجال يزيد الأمور غموضاً، فلا يعرف مايكنه البعض للآخر، وبذلك تنمو الدسائس و الفتن. **والمساواة**، فلا فضل لأحد على آخر، وذلك يقتضى الاعتراف بحق كل شعب فى الموارد الطبيعية، بحيث تُقَسَّم بالتساوى على كل شعوب الكرة الأرضية، فلا استغلال، ولا احتكار، وإنما تعاون بين الناس على تنمية الموارد، وتوزيعها على الشعوب، بحيث ينال كلٌّ ما يضمن له حياة كريمة، تليق بالإنسان الذى كرمه الله.

هذه هى القواعد الأساسية فى مجال حقوق الإنسان، ويجب على أطراف الحوار الاعتراف بها، وإعلان هذا الاعتراف على الملأ، ثم يبدأ الحوار بين الأطراف للوصول إلى صياغتها فى مبادئ عامة، يلتزم الجميع بتطبيقها بكل الوسائل، حتى وإن اقتضى الأمر إنشاء تحالف دولى لفرضها بالقوة على من يرفضها.

حقوق المرأة

من الطبيعى أن تتمتع المرأة بكل ما يتمتع به الرجل، من الناحية الإنسانية، فكل مايتوصل إليه الحوار الدينى فى بحث موضوع " حقوق الإنسان " يسرى على المرأة، ثم تنفرد ببحث آخر، ليرفع عنها ما يلحقها من ظلم باعتبارها أنثى، وذلك من حيث حقوقها كزوجة، ابتداءً من حقها فى اختيار شريك حياتها، إلى ممارستها فى إدارة شئون الأسرة، وتربية أولادها، وحقها كمواطنة، لها ما للرجل من: تعليم، وعمل، ومشاركة فى شئون الأمة: الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.... وغير ذلك من الأمور التى يمارسها الرجل، ما دام ذلك فى استطاعتها.

البيئة

قد يبدو للبعض أن هذا الموضوع بعيد كل البعد عن موضوعات الحوار الدينى، لأن مفرداته من نظافة وتشجير وأمثالهما لا تدخل فى نطاق الموضوعات المثيرة للجدل، والتى تحتاج إلى اتفاق بين ممثلى السلطة الروحية، ولكن هذا الفهم غير صحيح، فلم تعد المشاكل البيئية قاصرة على هذا التصور، بل امتد نطاقها، فأصبحت مسألة دولية تحتاج إلى تضافر كل القوى، بما فيها المؤسسات الدينية، ذلك أن البيئة مهددة بالمنتوجات البيولوجية، من أسلحة ومتفجرات، وعلى رأسها الأسلحة النووية، التى أصبحت أكبر هاجس للإنسان، تقض مضاجعه، وتهدد وجوده، فهو فى قلق دائم، وخوف مستمر من آثار هذه المخترعات، لا من حيث توقعه لاندلاع حرب نووية فقط، بل من تسرب هذه الإشعاعات النووية، كما حدث فى "تشرنوبيل" قبل عدة سنوات، ومن انتشار إشعاعاتها بأى طريق آخر، حيث تدمر الكائنات الحية المحيطة به، بما فيها من

الطعام والشراب الذى ينقل إليه الأمراض والعلل التى لا تبقى ولا تذر. ولهذا ينبغى بحث هذا النموذج فى لقاءات الحوار الدينى، واتخاذ قرارات وفتاوى دينية لتحريم هذه الصناعة، ومناشدة كل الدول، بلا استثناء، حتى الدول العظمى بالتخلص من هذه الصناعة كلية، وتدمير كل مالديها من قنابل ومتفجرات نووية، ومناقشة السبل التى يمكن أن تتخذها كل المؤسسات الدينية لتخليص العالم من هذا الكابوس الذى يجثم على صدور الناس، حتى يشعر الإنسان بالأمن والسلام، فتهدأ نفسه ليتفرغ للإبداع فى المجالات التى تساعده على التطور الحضارى، وتعيش كافة الشعوب فى أمن واطمئنان.

توزيع الثروات

لاشك أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، وأودع فيها ثروات متعددة، ليستخدمها الإنسان فى حياته، وعليه فلا يجوز لشعب أن يحتكر هذه الثروات ويحرم منها الآخرين، كما هو واقع اليوم فى عالمنا المعاصر، إذ يستأثر ٢٠% من سكان الأرض بـ ٨٠% من هذه الثروات. وهذا ظلم يجب رفعه عن المحرومين من التمتع بثروات الكرة الأرضية. وعليه فيجبّ على المؤسسات الدينية بحث هذا الموضوع فى لقاءات الحوار الدينى، للوصول إلى قواعد تعطى كل ذى حق حقه، فلا ظلم، ولا احتكار، ولا استغلال، بل تعاون، وتضافر للجهود، حتى يكون هناك توازن بين الشعوب فى الانتفاع بهذه الثروات، كُلٌّ حسب طاقته، ولا يُحْرَم منها من لم تؤهله طاقته وعمله، بل يأخذ ما يكفيه فى حياته، حتى ولو اقتضى الأمر إنشاء صندوق لمساعدة الشعوب الضعيفة — وكذلك الأفراد — ليعيشوا عيشة إنسانية كريمة.

هذه نماذج فقط من القضايا التى يجب أن تطرح على مائدة الحوار الدينى؛ إذ

مما لاشك فيه أن هناك العديد من القضايا والمشكلات التى يجب بحثها، فعلى المكلفين بالتحضير لهذه الندوات والمؤتمرات حصر قضايا العصر التى تحتاج إلى بحث، ووضعها فى قائمة حسب أهميتها بالنسبة لحياة الأفراد، وضرورتها لاستقرار المجتمعات الإنسانية وأمنها.

أهداف الحوار الدينى

للحوار الدينى أهداف متعددة ومتنوعة على جميع الأصعدة: فردية وجماعية، إقليمية ودولية، ثقافية وفكرية، ومن أهم هذه الأهداف: **معرفة الآخر**، إذ يعرض كلٌّ ما عنده أمام الآخر، سواء كان ذلك يتعلق بحياة الإنسان فرداً أوجماعة، أو باستقرار حياة الشعوب وأمنها. يعرف المرء رأى الآخر فى العدل والمساواة والتكافل، ومدى استعداده للمشاركة فى وقف العدوان على الشعوب، والإسهام فى العمل العام لحماية الإنسان من الضياع والهلاك تحت عجلة القوى الاقتصادية عابرة القارات، وفى مواجهة الأسلحة الفتاكة التى تُسْقِط كل يوم — بل كل ساعة — العشرات — بل المئات — من القتلى والجرحى ممن لاذنب لهم ولا جريمة ارتكبوها، اللهم إلا الرغبة فى فرض الهيمنة والسيطرة من المتشددين والمتطرفين من الجماعات غير الشرعية، أو من جانب عصابات إقليمية، أو من جانب قوى دولية عظمى.

إن مجرد الجلوس على مائدة الحوار الدينى بنية صادقة من الطرفين فى التعايش السلمى، ينزع فتيل الاختلاف من المتخاصمين، ويمهد الطريق لبدء حقبة جديدة يتعاهد فيها الطرفان على العمل سوياً لرفع الظلم عن المظلومين، ومساعدة الضعفاء على حماية أنفسهم وأموالهم وأوطانهم، والوقوف جبهة واحدة أمام كل من يعتدى — أو يفكر فى الاعتداء — على غيره، أو يستبيح حرمات الآخر،

سواء على مستوى الأفراد أو الشعوب

إن صدام الحضارات فكرة شيطانية، يراد بها نشر العداوة والبغضاء بين الشعوب، مما يعطى قوى العدوان ذريعة للسيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها، ولذا يجب أن يركز الحوار الدينى على التعايش السلمى بين الأمم، وإن اختلفت عقائدها، وتنوعت ثقافاتها، وتعددت اتجاهاتها الفكرية؛ إذ لم يكن – ولن يكون – صدام بين الحضارات، بل تنافس شريف، يتمثل فى تبادل الأفكار والرؤى على جميع المستويات، فما كان صالحاً للأفراد والمجتمعات، بقى واستمر، وثبتت أقدامه، وما كان طالحاً ذهب واندثر، يقول الله تعالى: ﴿....فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ...﴾ [الرعد: ١٧].

❊ ❊ ❊

حوار الحضارات

اهتم المفكرون منذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بقضية العلاقة بين الشرق والغرب، وبتعبير أدق بين الإسلام والآخر مشددين على أن الأسلوب الأمثل للتفاهم بين الطرفين – المسلمين وغير المسلمين، وخاصة الأوربيين ومن لحق بهم من سكان أمريكا الشمالية – فى ظل تدهور الأحوال الإقليمية فى بلاد المسلمين، وذلك بغزو العراق وأفغانستان هو: **الحوار**، وأكد هذا التوجه حدة التوتر فى فلسطين، وتلويح القوى العظمى لبعض البلدان الإسلامية فى منطقة الشرق الأوسط بالعقاب الدولى، الذى قد يصل إلى حد استعمال القوة العسكرية ضدها.

تبلور هذا الاتجاه وتدثر بمصطلح فكرى هو: " **حوار الحضارات** "، وذلك ردًّا على نظرية صمويل هنتنجتون: **صدام الحضارات**، التى روج لها فى التسعينات من القرن العشرين بنشر كتاب بهذا العنوان، حيث بين فيه أنه بانتهاء الحرب الباردة بين الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى سوف يتشكل العالم نتيجة للتفاعل بين سبع أو ثمانى حضارات كبيرة، منها الحضارة الإسلامية. وقد اعتبر هذه النظرية تهديداً للسلام، معتمداً – على أساس فهم خاطئ – على دراسته للعلاقات الثقافية والحضارية بين الأمم على مدى التاريخ، ومفصحاً عما يكمن فى اللاوعى عند الغربيين من ضرورة وجود القطبية الثنائية فى العالم، يناطح كلاهما الآخر. فلما سقط العدو الشيوعى، سوف يحل مكانه – هكذا تصور هنتنجتون – عدو آخر للغرب، وهو: **الإسلام**.

كتب الباحثون – وما زالوا يكتبون – كثيراً من المقالات والكتب حول هذا الموضوع، وكثرت المؤتمرات، وتعددت اللقاءات فى شكل ندوات، سواء على

المستوى الوطني، أو الإقليمى، أو العالمى، وأحياناً وفود تجوب هنا وهناك، تدير حواراً بين الأطراف المختلفة فى إطار ما يعرف بـــ: **حوار الحضارات**، مركزين على أن السلام العالمى لا يمكن أن يبنى إلا فى ظل **التسامح، والتفاهم**، كما أن مصير البشرية لا يتقرر إلا بالجميع، ومعهم، ولصالحهم جميعاً.

غير أن الاتجاهات الفكرية كانت – وما زالت – متعددة، بل ومتضادة أحياناً؛ فبينما يرى فريق أنه لا جدوى من الحوار فى ظل الوضع الدولى الحالى، حيث تسود حالة صراع حضارى بين العالم الإسلامى والعالم الغربى، ويشككون فى قدرة المتحاورين على الإسهام فى إدارة المعضلات السائدة بين الشرق والغرب، مؤكدين على أنه لا يمكن أن يكون الحوار بين الحضارات مجدياً فى ظل غياب التكافؤ بين الأطراف المتحاورة، فانعدام التوازن بين القوى يؤدى إلى وضع يملى فيه أحد الأطراف ما يحقق أطماعه، ويحمى مصالحه، وعلى الطرف الآخر الإذعان. والدليل على صحة هذا أننا نرى أن الغرب هو الذى يضع أجندة الحوار، ويحدد قضاياه، وهى غالباً ما تدور حول الحريات، والحقوق الفردية، وضرورة احترام التعددية. ويركز بصفة خاصة على ما يراه – أى الغرب – تفسيرات جامدة للشريعة الإسلامية، وهى مسألة تهم الغرب، ويضعها فى مركز الحوار، مستهدفاً صياغة الشرق بالصورة التى يريدها تحت حجة معالجة – وتجفيف – جذور الإرهاب الذى يهدد – حسب زعمهم – الحضارة الغربية. فحوار الحضارات بالشكل الموجود الآن على الساحة الدولية، ما هو إلا واجهة للغرب يخفى وراءها صراع الحضارات، وبالتالى فلن يثمر إلا بمقدار ما تريده الإدارات الرسمية فى صراعها مع القوى المخالفة لها.

أما الفريق الذى يرى أن الحوار مع الآخر ضرورة، فيستند فى رأيه إلى أن

العولمة حقيقة قائمة، والواقع يحتم الاتصال بالآخر بكل الطرق الممكنة، وعلى رأسها الحوار الفكرى تفادياً للصدام، الذى يسعى إلى تأجيجه أناس سيطرت العنصرية على عقولهم، فطفقوا يروجون لصدام الحضارات، وتناطح الثقافات بغية تحقيق مصالح لهم، وأملاً فى الوصول إلى التحكم والسيطرة على مقدرات الشعوب. ومن هنا يجب على الجميع أن يقبلوا بالحوار، ويدعوا له، حتى لا يضيع الوقت والجهد فى إحباطات وصراعات لن تجدى، ولن توصلنا إلا إلى مزيد من الإحباطات، وعديد من الهزائم على جميع المستويات: سياسية، وعسكرية، وثقافية، واقتصادية.

ولكى يسير الحوار فى طريق سليم، يؤدى إلى التفاهم بدلا من التراشق، ويفضى إلى التسامح بدلا من التعصب، فعلى الغربيين أن يغيروا من توجهاتهم فى السياسة الخارجية، وأن يتخلوا عن أسلوب الازدواجية فى الحكم على الأشياء، وفى التعامل مع القضايا الدولية، وأن يسعوا إلى الإنصات لما يقوله المسلمون عن الإسلام، حتى يفهموا الإسلام، بعيداً عن الصورة السلبية التى كونوها عنه من تصرفات بعض المغالين، وهم قلة لا تمثل الإسلام..... ويوجد مثلها فى كل الأديان، وبين كل أمم الأرض، فلا يجوز أن تُعَدّ هذه الصورة — التى رسمتها قلة أخفقت فى التعبير عن مبادئ الإسلام — تعبيراً عن المبادئ التى وردت فى القرآن الكريم، يلتزم بها المسلمون أفراداً وجماعات.

أما المسلمون، فعليهم أن يتخلوا عن الدور السلبى الذى يمارسونه على صعيد المجتمع الدولى، وأن يرتبوا مجتمعاتهم من الداخل، كى تعبر عن الصورة الإسلامية الصحيحة، وأن يُعْنَوا بإعلامهم، كى يرقى إلى درجة تعبر عن قيم الإسلام وتعاليمه تعبيراً صحيحاً.

لم تكن ظاهرة الحوار غائبة فى المجتمعات الإسلامية منذ أمر الله رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة؛ فقد حاور ﷺ المشركين فى قضايا كثيرة، سجلها القرآن الكريم، كما عقد لقاءات مع مختلف المجتمع العربى فى الجزيرة العربية فيما يعرف بعام الوفود، وكان من بين الوفود التى وفدت عليه فى هذا العام وفد نصارى نجران، فقد رُوِىَ أنهم دخلوا عليه فى مسجده، وبدءوا الصلاة فيه، فأراد بعض الصحابة منعهم، ولكن النبى ﷺ بسماحته قال للمانعين: **دعوهم**، فصلوا فى مسجده مطمئنين. ولما فرغوا من صلاتهم عُقِدَت بينه وبينهم جلسة حوار، وجهوا فيها للنبى ﷺ كثيراً من الأسئلة، فأجابهم النبى ﷺ عليها. وقد سجل القرآن الكريم بعضاً من هذه الأسئلة مع إجابة الرسول ﷺ عنها، فمن بين أسئلتهم قولهم له: ما تقول فى عيسى، فإنا نصارى، يسرنا إن كنت نبيًّا أن نعلم ما تقول فيه، فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ [آل عمران: ٥٩-٦١]، وبعد انتهاء الحوار أعطاهم عهداً كان من مبادئه: "..ولنجران جوار الله تعالى وذمة محمد النبى ﷺ وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وتبعهم، وألا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، وكل ما تحت أيديهم من مال، وليس عليهم ريبة، ولا دم جاهليته، ولا يحشرون، ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة، ولا يُؤْخَذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبى

رسول الله، حتى يأتى الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بحرب"[١].

فهذه أول معاهدة فى التاريخ المعروف، تعترف بدين الآخر وثقافته، وتحترم تقاليده وعاداته، فهى اعتراف صريح بتنوع الحضارات، وتعدد الثقافات، وهى نموذج للتعايش السلمى بين شعوب مختلفة فى عقائدها، ومتنوعة ثقافاتها، ومتعددة أساليب حياتها. نموذج حضارى برز فى عصور الظلمات، ونبت من بين الحروب الدينية التى كانت سائدة آنذاك، وتبلور فى خضم الصراعات العرقية والثقافية؛ فهى أكبر دليل على تقبل الإسلام للثقافات الأخرى، والتعايش معها، وخير مثال لدعوة الإسلام إلى إقرار السلم بين الأمم والشعوب، مهما اختلفت أديانها، وتعددت ثقافاتها، وتباينت أساليب حياتها، وتنوعت نظرتها وتصورها للكون والحياة.

يفتح الإسلام ذراعيه لكل الثقافات الأخرى، مما يدل على سعة أفقه، ونظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس، فأقام حضارة كبرى ساهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة: فى الفكر، والفلسفة، والأدب، والفن، والطب، واللغة، والتصوف. وكانت تلك الحضارة تأليفاً وتوحيداً، لكل الحضارات قبلها: فى الصين، والهند، وفارس، والروم، واليونان.

شيد المسلمون على كل هذه الأسس بناءً حضاريًّا ضخماً، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة، فكان مصدراً للحضارة الحديثة. وقد عبر أحد العلماء عن دور

(١) زهرة: خاتم النبيين ﷺ جـ ٢ صـ ١٣٦

المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله: " إن المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء، بل ورثة الفلاسفة كذلك."

فالإسلام دين حضارى؛ لأنه لم يغرس فى نفوس المسلمين حقداً ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق ديناً آخر، ولم يُحَرِّم عليهم التزود بأى نوع من أنواع الثقافات الإنسانية، ولم يفرض عليهم شيئاً يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية، ولم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام، فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس، وبوتقة صهرت جميع الثقافات، ووادياً أمِنَ فيه الناس على أنفسهم، وعقائدهم، وأفكارهم، واطمأنوا فى ظله على سلامة أموالهم وممتلكاتهم، فنظروا إليه غير خائفين، وفكروا فى مبادئه غير وجلين، ودرسوا أحكامه فى جوٍّ من الحرية والديمقراطية، فجاء اعتناق من اتخذه ديناً عن رغبة واقتناع، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمناً مطمئناً، يسعى إلى رزقه، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان من حيث هو إنسان، لا فرق بينه وبين الآخر بسبب الدين، أو اللون أو العرق، فالكل أمام قوانين العدل، ومبادئ الرحمة سواء.

إذا حدد العلماء معنى كلمة الحضارة بأنها: مجموع ما خلفته الأمة من آثار فكرية وفنية فى جميع المجالات المادية والمعنوية، فإن الأمة الإسلامة قد تفوقت على كل الأمم السابقة واللاحقة فى هذه المجالات؛ إذ أبدع المسلمون فى جميع نواحى الحياة، فأسهموا بقسط وافر فى بناء حضارة إنسانية داخل **إطار أخلاقى غير مسبوق**. ففى مجال التعليم الذى هو اللبنة الأولى والأساسية فى بناء أى حضارة، أنشأ المسلمون المدارس، والأكاديميات العلمية فى وقت نشر الجهل أجنحته فى جميع أرجاء الأرض، فانتشرت المدارس الإسلامية منذ القرن العاشر

الميلادى فى جميع مناطق الأقطار الإسلامية، من الأندلس عبر إفريقيا حتى بلاد فارس، وكانت المدارس العليا فى الأندلس منبعاً أمد الحياة الثقافية الأوربية بروافد حملت معها الخصوبة الفكرية التى هى أصل الحضارة الغربية.

وفى مجال الهندسة توصل العلماء المسلمون إلى رسم كتابة الأعداد، فكانت أساساً للرسم الأوربى الحالى للأرقام الحسابية، وظل الجدول الفلكى الذى وضعوه هو المرجع الوحيد لعلماء أوربا لعدة قرون.

وفى مجال الطب، وصل المسلمون بفن العلاج إلى مستوى الكمال، فأنشئوا أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد، ثم ما لبث أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية، وكان أشهرها "بيمارستان" دمشق، حيث توجه إليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية، كما أمه الطلاب للتدريب على ما يحتاجون إليه فى امتحاناتهم.

وكانت رعاية المرضى سبباً فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية، ذلك المجال الذى أصبح فى ذلك الوقت علم المسلمين الذى لا ينازعهم فيه أحد؛ إذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية، واستعملوا كثيراً من الأعشاب فى علاج المرضى، فأثروا هذا المجال باختراعاتهم العديدة، كما ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب الإسلامى، **ثم انتقل هذا إلى أوربا فكان أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون.**

يعترف كثير من علماء أوربا بذلك؛ فقد قال "جوتشالك" فى كتابه "الإسلام قوة عالمية متحركة": "أسهم الشرق الإسلامى منذ القرن الثامن الميلادى فى الحضارة العالمية بانجازاته الضخمة فى مجالات المعرفة، ولم يتوقف تأثيره عند قرن معين، بل ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر القرون حتى عصرنا

الحالى، إذ امتد التأثير الفكرى لهذه الحضارة — حتى بعد التدهور السياسى للدولة الإسلامية — فى جميع أنحاء العالم، فأنتج فى مجالات عديدة لم تبحث جوانبها حتى الآن...".

ثم يقول: " **لو لم يقم العرب بهذا المجهود الضخم فى مجال المعرفة، لفقدنا كثيراً مما نتمتع به الآن فى عالم الثقافة من العلوم والمعارف، أو لتأخر على الأقل انتفاعنا دهوراً طويلة، فقد وصلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريق أسبانيا، فدفعتها إلى تطور ذاتى فيما بعد**".

حتى فى مجال الفن كان للمسلمين بصمة واضحة؛ فقد استلهم الفن الإسلامى أفكاره من الفنون السابقة له، ولكن ما أخذه من هذه الفنون المختلفة أعاده فى شكل اتخذ طابعاً مختلفاً كل الاختلاف عن أى فن سبقه، فقد عبر عن اتجاه إسلامى خالص، وحمل بصمات الروح الإسلامية التى تخضع لإرادة الله، الذى حددت فى اللوح المحفوظ مصير العالم ككل، وقدرت لكل كائن حى قدره على حدة، فما يباشره من أعمال هى فى واقع الأمر منسوبة إلى الله.

وفى داخل هذا الإطار، أنتج المسلمون فناً رائعاً، يستطيع كل إنسان إدراكه فى المساجد، حيث زينها الفنانون برسومات رائعة، وزخرفوها بأشكال فى غاية الروعة والإتقان، بهرت — وما زالت تبهر — كل من شاهدها حتى عصرنا الحالى. وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على ذوق وإحساس بالجمال، يضاهى — إن لم يفق — ما ينسب إلى العالم المتحضر اليوم، باعتباره من السمات الأساسية للتقدم فى المجتمع، وازدهار حياة الفرد فيه.

أما فى مجال الصناعة، فقد برع المسلمون فى العديد منها؛ إذ بلغت صناعة النسيج الفاخرة عصرها الذهبى فى عهد الدولة الصفوية، عندما طليت قصور

أوربا بذلك النوع المرصع بالذهب والفضة من أصبهان، وظلت تستورده منها ابتداءً من عام ١٥٠٢م على امتداد مائتين وخمسين عاماً.

كما احتلت صناعة السجاد على امتداد التاريخ الإسلامى مرتبة عالية، وظل الشرق حتى اليوم أكبر مورد سجاد للعالم، وكان السجاد التركى أوسعها انتشاراً فى العهد العثمانى، ولا زال مطلوباً فى كل أنحاء العالم حتى اليوم بجانب الفارسى والقوقازى.

كذلك أنجزت البلاد الإسلامية فى مجال صناعة المعادن إنجازات رائعة، كما كانت بلاد فارس وطن صناعة الكرستال والزجاج، ثم انتشرت فى جميع البلاد الإسلامية، كما ازدهر فن العاج فى الأندلس وصقلية، ثم انتشر من هناك فعم جميع البلاد الإسلامية. ولا تنس صناعة الأخشاب، ويكفى دليلاً على هذا رؤية ما فى المساجد من أشكال هندسية رائعة للمنابر، ومشاهدة ما فى القصور والمتاحف من شرفات وأبواب وشبابيك، تكاد تنطق من فرط روعة أشكالها الهندسية، ولا تسل عن الفن المعمارى الإسلامى، فالمساجد والقصور تنبئك عن الكثير منها.

كان المسلمون متفوقون أيضاً فى مجال التجارة، يشهد بذلك أحد الأوربيين فى معرض حديثه عن ازدهار التجارة فى العالم الإسلامى فى عصر لم يكن لها أثر يذكر فى أوربا، فقد قال بالحرف الواحد: " بينما كانت الطبقات الحاكمة فى أوربا تنظر إلى التجارة نظرة ازدراء واحتقار، سيطر العالم الإسلامى على شئون التجارة، فأصبح التبادل التجارى محتكراً فى أيدى المملكة الإسلامية؛ إذ لم يكن بين أقطارها الشاسعة حواجز جمركية، ولا حدود مانعة أمام تبادل البضائع اللازمة لضرورة الحياة، فازدهر الاقتصاد فى ظل قواعد التجارة وشئون

المواصلات التى بلغت حد المثالية، لدرجة أن النشاط التجارى سار فى البر والبحر بأقصى سرعة دون هدوء أو توقف، واستطاعت العقلية التجارية عند التجار المسلمين فى ذلك الوقت الحصول على أرباح طائلة[١].

ومن هذا العرض يتبين أن المسلمين أنجزوا الكثير فى مجالات الحضارة الإنسانية بكل أنواعها وأشكالها، ولذا ينبغى أن يكون معلوماً لدى الطرفين المتحاورين نديتهما ومساواتهما، فإذا كان الطرف الغربى يعتقد أنه متفوق على الطرف الآخر بما وصل إليه من تقدم فى العصر الحديث، فإن للطرف الإسلامى تاريخاً مجيداً فى هذا المجال، ويتفوق على الغرب بأن حضارته لم تكن مادية بحتة — كما هو الحال فى الحضارة الغربية المعاصرة –، بل كانت إنسانية؛ تعنى بالإنسان، وتحافظ على حقوقه، وتغرس فيه الأخلاق التى تحميه من عبودية المادية، وسيطرتها على سلوكياته، وتحرره من طغيان الأنانية، وشطحات التعصب للدين، أو للعرق، أو اللون، فكل الناس سواسية، فلا تعصب، ولا تطاول من أحد على الآخر، فالإنسانية مصانة، ومقدسات كل الشعوب — على اختلاف أديانها – تحتل المكانة الأولى فى ظل الحضارة الإسلامية.

احترم الإسلام عقائد الآخرين، على الرغم من الاختلاف الجذرى بينها وبين الإسلام، بل إنه سماها أديانا، مما يوحى بالاشتراك بينها وبين الإسلام فى الخصائص المميزة لها عن التيارات الفلسفية، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦]، وهو ما يسمح لمعتنقيها بالجلوس على مائدة الحوار جنباً إلى جنب مع المسلمين يحاورونهم حواراً

(١) Vlg. Gottshalk: Weltbegende Macht Islam ١٦٠ ff.

حضاريًا، بعيداً عن السفه والتطاول، ومترهاً عن الإسفاف فى لغة الحوار، متجنبين احتقار الآخر أو الإساءة إلى مقدساته، امتثالا لأمر الله فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [الانعام: ١٠٨]، فالنهى عن سباب مقدسات الآخر هو دعوة إلى حوار حضارى بالكلمة الطيبة، والمجادلة بالتى هى أحسن، وتبادل المعلومات فى جو يسوده الاحترام من الطرفين، ومراعاة شعور الآخر، بحيث لا يتطاول على مقدساته، ولا يستهين بمبادئه، ولا يستهزئ برموزه، ولا يسخر من تعاليمه.

فالإساءة إلى الرسول ﷺ فى بعض الجرائد الغربية أسلوب غير حضارى، بل هو رجوع بلغة الخطاب إلى ما كان سائداً فى عصور الظلام، وممارسة لأخلاقيات تتنافى مع أبسط مبادئ الحضارة الإنسانية. ومن المبررات اللامعقولة ادعاؤهم بأن هذا يدخل فى باب حرية التعبير، فقد ادعت الصحيفة الدنماركية التى نشرت صوراً مسيئة للرسول ﷺ أن ما قامت به حق مشروع، يندرج تحت باب حرية التعبير السائدة فى العالم الغربى؛ إذ أن قوانين هذا العالم تحمى هذه الحرية، وعليه فليس من حق المسلمين الاعتراض على ذلك، لأنه من المسلمات فى المجتمع الغربى.. بل وصل الأمر إلى حد رفض رئيس الوزراء الدنماركى مناشدة المسلمين له تقديم اعتذار عن هذه الإساءة زاعماً أن حرية التعبير حق كفله الدستور، وأنه لا ولاية للحكومة على الصحافة، بل الأكثر من هذا إمعاناً واسترسالا فى مسلسل إهانة المسلمين إعلان البرلمان الأوربى – الواضح والشديد اللهجة — عن تضامنه مع الدنمارك وغيرها من الدول التى طالتها ردود المسلمين الغاضبة، وشدد مكرراً على أن الدول التى شهدت أعمال عنف وتظاهرات ضد نشر الرسوم، هى أمكنة تشهد فى شكل منتظم انتهاكاً لحرية التعبير، وهو قول

ينطوى على عدة مغالطات، منها: أنه لا توجد حرية مطلقة – وهو ما تعارف عليه المجتمع الدولى بكل أطيافه –؛ إذ حريتك تنتهى حيث تبدأ حرية غيرك؛ فلا يجوز نشر الخصوصيات باعتبار أن ذلك حرية، ولا ينبغى الإساءة إلى المقدسات الدينية بحجة الحرية، لأن المقدسات الدينية لا يجوز الاقتراب منها، مهما كانت الدوافع والملابسات، وهناك أسرار تحرم قوانين الدول نشرها، حفاظاً على سلامة المجتمع، وصوناً للأمن العام. كما أن ادعاء حكومة الدنمارك بأن ما نشرته الصحيفة هو من باب حرية التعبير، وأنه لا ولاية للحكومة عليها، وأنه لا يمكن بأى حال فرض وصاية على الإعلام، يدحض كل هذا محاكمة المؤرخ "ديفيد إرفنج"، فقد اقتيد إلى ساحة المحكمة بسب ما قاله فى محاضرة ألقاها فى عام ١٩٨٩م: " إن هتلر قدم المساعدة ليهود أوربا، وأن كل ما يتردد حول المحارق وأفران الغاز ليس سوى **خرافة**."، وحكم عليه بثلاث سنوات بتهمة التعبير عن رأيه فى أمر **غير مقدس**، وهو محرقة اليهود فى أفران الغاز فى ألمانيا الهتلرية.

أين اختفت حماية حرية التعبير فى هذه المحاكمة ؟، ومن قبل حوكم "جارودى" لأنه شكك فى عدد ضحايا الهولوكوست. **أين كان الدفاع عن حرية التعبير فى مسألة تاريخية، من طبيعتها الاختلاف فيها ؟**؛ فهى ليست نصوصاً مقدسة، وليس لها من الأدلة والبراهين ما يرفع درجة اليقين فيها إلى مرتبة المقدسات الدينية !

" لقد كان هذا المسلك الدنماركى خصوصاً والمسلك الأوربى الصحفى عموماً درساً من دروس الحماقة السياسية ! وإذا كنا من قبل – من باب النقد الذاتى – نقدنا الحماقة السياسية العربية باعتبارها تعبر عن حماقة المتخلفين، إلا

أننا لم ننس أن ننقد أيضاً حماقة المتقدمين التى ضربنا لها مثلاً، الحماقة السياسية الأمريكية فى غزوها العسكرى للعراق وفى استخدام الإرهاب للقضاء على الإرهاب.

وها نحن اليوم نواجه بحماقة سياسية صارخة أشعلتها الدنمارك وجرت وراءها الصحافة الفرنسية والألمانية والتى شاركت جميعاً فى استفزاز مشاعر الشعوب الإسلامية، والتى أدت إلى مظاهرات حاشدة، وإلى مقاطعة للمنتجات الدنماركية. وهكذا تحولت هذه الحادثة المنفردة التى كان يمكن احتواؤها لو حكمت كل من الصحيفة الدنماركية والحكومة الدنماركية العقل وقدمت الاعتذار المناسب فى الوقت المناسب. والواقع أننا الآن نشهد حالة نموذجية لما أطلق عليه "صمويل هينتنجتون": " صراع الحضارات " وإن كان من الأسلم أن نسميه " صراع الثقافات "

وإذا كانت الثقافة الأوربية قد قامت منذ قرون بثورة ثقافية ضد تعسف الكنيسة، وأعلنت الفصل بين الدين والدولة، إلا أننا فى مجال الثقافة العربية الإسلامية لا نعتبر أن السخرية من الأديان — أيًّا كانت — أو ازدراؤها يعد من حرية التعبير ! بل إن تشريعاتنا الجنائية تعتبر هذا الازدراء جريمة يعاقب عليها القانون. ونحن نعتقد فى حكمة هذا الاتجاه، لأن المساس بالعقائد الدينية التى يؤمن بها ملايين البشر مسألة بالغة الخطورة على الاستقرار الاجتماعى، ومما يساعد على بلورة هذا الاتجاه لدينا، أن الإسلام يعترف بالأديان السماوية السابقة عليه، ونعنى اليهودية والمسيحية، ولذلك يمكن القول أن التطرف الفكرى والحماقة السياسية قد اشتركا فى إشعال هذا الصراع الثقافى الحاد بين أوربا والعالم الإسلامى مما ينذر بعواقب كارثية اقتصادية وسياسية وثقافية على

كل الأطراف."[١]

إذا كانت هناك رغبة حقيقية وجادة عند من ينادون بالحوار الحضارى لتحقيق سلام عالمى بين كل الأمم والشعوب، حتى تختفى الحروب الصغيرة والكبيرة، فيجب على المتحاورين من الثقافات والحضارات المختلفة أن يراعوا حق الإنسان – أى إنسان على وجه الأرض – فى الحفاظ على إنسانيته التى كرمه الله بها؛ فإهانة الأرواح والأعراض مرفوضة فى الإسلام بالنسبة للناس جميعاً، فما بالك بالمقدسات ورموز الأمم الدينية، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تتضمن حرية التعبير سب الآخرين والاستهزاء بمبادئهم ورموزهم، فإن ذلك يجرح شعورهم، ويقيم سداً منيعاً بينهم وبين الحوار مع الآخر، فالحوار البناء يقوم على وصل حبال الود، والتداعى إلى كلمة سواء، والتعاون على الخير، والانطلاق من خندق واحد لمواجهة أخطار عديدة مشتركة، تهدد الكيان الإنسانى كله على اختلاف عقائد أهله، وألوانهم، ومصالحهم القريبة، فلا يؤتى الحوار ثماره إلا إذا كان قائماً على اعتراف جاد وأمين بالآخر، فلا جدوى منه، ولا فائدة فيه، إذا كان بعض أطرافه يتعالون على سائر الأطراف، أو إذا سمح أى طرف بإهانة الآخرين وسب رموزهم.

يرى المسلمون أن الحوار الحضارى فريضة؛ لأن دعوة الإسلام عالمية، لا تخص جنساً، ولا لوناً، ولا عرقاً، ولا بلداً معيناً، فالخطاب القرآنى يتوجه فى الكثير من آياته إلى البشر جميعاً، مؤكداً على التعايش السلمى، والإخاء الإنسانى مستهدفاً خير وتقدم ونماء الإنسانية كلها.... هذا فضلاً عن أن الدعوة إلى الحوار، والالتقاء بالآخر، ومجادلته بالتى هى أحسن دعوة قرآنية، وتكليف

(١) السيد يسين: تطرف فكرى وحماقة سياسية: الأهرام ٩ فبراير ٢٠٠٦

شرعى قائم، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ومن هنا يجب أن نبادر — نحن المسلمين — بالدعوة إلى الحوار، والإسهام فى مجالاته المختلفة، وتنوعاته الفكرية المتعددة، امتثالا لأمر الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولكى ينجح هذا الحوار ينبغى أن تسهم فيه جميع الدوائر والمؤسسات التى تعنى بالفكر الإنسانى، وكذلك التى تستهدف حفظ الأمن والسلم على المستويين: الإقليمى والدولى.

ينبغى أن يكون خطابنا فى مواجهة الآخرين خطاباً حضارياً متكاملاً، وفى مقدمة الخصائص التى تكسب الخطاب طابعاً حضارياً اتسامه بالواقعية، أى ارتباط الخطاب بحركة الواقع الراهن إسلاميًّا ودوليًّا، بإشكالياته وقضاياه وتحدياته... وعلى ذلك يبدو ضروريًّا أن يمتلك الخطاب القدرة على فهم الواقع، والتعرف على عناصره، ومكوناته، وقواه المختلفة، وتطوراته، ومتغيراته، وتحولاته المتسرعة بأشكالها وصورها، وميادينها المختلفة، والتى تفرض أوضاعاً محلية، وإقليمية، ودولية جديدة تتطلب الحاجة إلى إدراكها والتعامل معها، وأن يعمل على صياغة تصورات، ومفاهيم، وحلول ملائمة تستجيب لمتطلبات واحتياجات النهوض بهذا الواقع، انطلاقاً من المبادئ والقيم الإسلامية.(١)

إن تبادل المصالح هو الذى يحدث التوازن بين طرفى معادلة الحوار والتعاون، ولا بد لحدوث هذا التوازن من وجود قوة وراءه، والقوة الوحيدة للمسلمين فى الوقت الحاضر تتمثل فى التضامن، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف، وبذلك

(١) الإسلام ومستقبل الحوار الحضارى ص ١٦ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

يكتسب الحوار حرارة وقوة، ويصبح الحديث عن التعاون الثقافى حديثاً مؤدياً إلى الغاية، محققاً للهدف. ولا يكون ذلك إلا إذا قامت بهذه الرسالة هيئة، أو مؤسسة، أو منظمة عربية – أو إسلامية – مشتركة، أعضاؤها من ذوى الخبرة، والتصور الصحيح، والرؤية المستقبلية السليمة، تدعمها الحكومات، دون أن تملى عليها هذه الحكومات علاقاتها المتقلبة فيما بينها، ولا علاقاتها الخارجية، وعلى أن تترك لها حرية التحرك فى نطاق مصالح المسلمين..... إذ من غير الطبيعى أن نستمر فى علاقات يواجهنا فيها غيرنا بمواقف موحدة، أو متقاربة، وبتصورات، وخطط واضحة، ونظل نحن متفرقين، دون وضوح فى التصورات والخطط، بل ربما كنا أحياناً نُقْبِل على الندوات والمؤتمرات دون إعداد كاف، ودون أن نعرف ما نريد، فتذهب مشاركتنا أدراج الرياح، وحين يعود ممثلونا، ووفودنا بشيء ذى قيمة – وما أقل ما يحدث ذلك – فإنه يضيع فى غياهب الأدراج. أما قيام هذه الهيئة أو المؤسسة المستقلة، فإنها تضع الخطط والبرامج، ثم تتولى التنسيق والمتابعة. وكل عمل ليس له متابعة هو عمل منقطع، يضيع دون الوصول إلى غايته، وما أكثر الأعمال التى تبدأ، ثم لا تنتهى إلى شيء.

يجب على المشاركين فى حوار الحضارات من الجانب الإسلامى ألا يشعروا بالنقص فى مواجهتهم لمن يملكون زمام الحضارة فى العصر الحديث؛ فهم – المسلمون – أصحاب حضارة كبرى– كما بينا سابقاً –، ملأت أسماع الدنيا، وسيطرت على مجريات الأحداث فى العصور الماضية، بل إنهم لا يزالون يملكون من العناصر الحضارية، ما يؤهلهم للوقوف جنباً إلى جنب مع صناع الحضارة الحديثة، فما زالوا يملكون جانباً كبيراً ومهماً فى البناء الحضارى، ألا وهو الجانب الإنسانى: المبادئ الأخلاقية، القيم الروحية، أسس العدل، المساواة بين

البشر؛ إذ لايفرقون بين الناس على أساس اللون، أو الجنس، أو العقيدة، فالكل سواء فى خلفياتهم الثقافية، وتعاليمهم الدينية، أضف إلى ذلك أن أبوابهم مفتحة على الثقافات الأخرى، يقبلون الصالح منها، مهما كان مصدرها، وعلى أى أسس ارتكز بنيانها، ومن أى منبع انحدر تيارها. فقبول التنوع الثقافى والفكرى مبدأ من مبادئ الفكر الإسلامى، والتعامل مع المخالفين — فكريًا — سمة واضحة فى الثقافة الإسلامية. فإذا كان الطرف الآخر يحس بالتفوق المادى والتكنولوجى، فإن الجانب الإسلامى يملك زمام الجانب الآخر من الحضارة، ألا وهو التفوق الروحى، وقبول الثقافات الأخرى دون تعصب أو تحيز، فضلاً عن أن استعادة سيطرة العالم الإسلام على مجال التكنولوجيا الحديثة ليس مستحيلاً، فهذا أمر لا يحتاج إلى طبيعة عقلية خاصة، بل يتطلب نوعاً من الخبرة وتوجيه الخبراء، يقول المفكر الإنجليزى " هيلير بيلوك Hilere Belloc ": " لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين، وتتماسك أطرافها تماسكاً قويًا، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب، بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه. من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية..... فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث. لا أستطيع أن أدرك: لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان...؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة، بل يتطلب الإلمام بها، والتفوق فيها إلى الخبرة وتوجيه الخبراء. ومن الأمور المؤكدة أنه – غالباً — مايحدث أن تكون حضارة، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى، أقل درجة من حضارة أخرى، لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى. إذن فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب — ظهر حتى الآن، أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة — فى المستقبل سيداً على

شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره – فلم ينقذه أحد –، وتحكمت فى سلوكه النظريات، التى تسلب الإنسان الإحساس بالطبيعة. لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟... (فإن حدث هذا) فسوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية – وهى من العوامل الأساسية لوحدة الشعوب –.... بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها."[١]

كما يجب على الآخر أن يقبل الحوار على أساس المساواة، فلا تعالى، ولا شعور بالأفضلية، ولا استهداف إخضاع المسلمين لإرادته وتوجهاته، ولا نية لفرض ثقافته ونظمه فى الحياة على المجتمع الإسلامى، بل حوار متساوٍ بين الطرفين، يستعد كل طرف فيه أن يسمع من الآخر، ليعرف وجهة نظره، دون الدخول فى المسائل العقدية، التى لا يمكن التسليم به من طرف للآخر، إلا إذا وصل إلى التنازل عن عقيدته واعتناق عقيدة الآخر، أظن أن هذا لن يحدث – بأى حال من الأحوال – من الجانب الإسلامى.

كما ينبغى أن يتضمن الحوار المسائل التى يساعد التحاور فيها على إقرار السلم فى المجتمعات الإنسانية، وتحقيق العدل بين الأمم والشعوب، وحفظ الأمن والسلم بين دول العالم، والعمل على تحقيق المساواة بين الناس على جميع المستويات الإقليمية والدولية. ومن المسلم به ألا يكون الحوار منحصراً بين الجدران، بل ينبغى أن يبحث المتحاورون عن آليات نقله إلى العامة، وتفعيل أهدافه على جميع الأصعدة: سياسية، واجتماعية، وثقافية، واقتصادية، وإلا أصبح الحوار عديم الفائدة، إذ لن يخرج عن اجتماعات، على شكل ندوات، ولقاءات، ومؤتمرات، يصدر عنها قرارات، لا يتعدى أثرها حيز الصفحات التى

(١) باول شمتز: الإسلام قوة الغد العالمية، ترجمة: محمد شامة صـ ٣٣٣

كتبت عليها، ولا يكون لها صدى إلا بمقدار ما تضفى عليها وسائل الإعلام من هالات وصلصلات.

ومن نافلة القول إعلان العامة والخاصة أن المسلم – بتأثير مبادئ الإسلام فيه – يقبل الآخر، ويتعامل معه بأسلوب حضارى، ويحترم عقائده، ويضمن أمنه وحمايته فى المجتمع الإسلامى، ويأخذ من ثقافته وإنجازاته ما لا يتعارض مع المبادئ الإسلامية، وتلك هى قمة ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية فى الجانب الأخلاقى.

فإذا وُضِعَ لحوار الأديان أهداف معينة، بعيدة عن مسائل العقيدة التى تختلف الأديان فى كنهها وطبيعتها، ولا يقبل المتدين من الآخر أن يعترض عليها، أو يضعها للمناقشة على طاولة البحث، لأنها من الحقائق المطلقة، وما عداها فهو قابل للمحاورة والمناظرة، فعلى المسلمين أن يشتركوا فى هذه اللقاءات، سواء كانت ندوات أو مؤتمرات أو مجرد محاضرات، محلية أو عالمية، ويناقشوا أصحاب الأديان الأخرى، سماوية كانت أو غير سماوية، كى يقيموا الدليل للآخرين على أن تعاليم الإسلام تسمح للمسلم بلقائهم ومناقشتهم فى القضايا الحياتية، بغية أن يتمتع الإنسان – مهما كانت عقيدته – بالأمن والأمان، ويعيش مع أخيه الإنسان فى سلام، بصرف النظر عن الاختلاف فى العقيدة. فإذا قام من يشترك من المسلمين فى هذه التجمعات بشرح مبادئ الإسلام وقيمه على الوجه الأكمل، فلربما فكر الآخرون فى مواصلة البحث فى الإسلام، ومقارنة مبادئه بما عندهم. وقد يؤدى هذا إلى اقتناعهم بهذا الدين.

ولن يستطيع القيام بهذه المهمة على الوجه المنشود إلا من تخرج فى الأزهر، أو فيما يماثله من الكليات الشرعية على الوجه الذى بيناه سابقاً، بل إن هذا

التأهيل لن يكون كافياً، بل لابد له – بالإضافة إلى دراسته الشرعية الواسعة – من دراسة التيارات الفكرية العالمية، والإلمام بعقيدة من يحاوره، ومعرفة الكثير من عاداته وتقاليده، ونظم حياته، وياحبذا لو أتقن لغته[١].

٤. **المحاضرة**: والمقصود بها المحاضرة العامة[٢]، وهى وسيلة من وسائل نشر الأفكار، التى تهدف إلى محو الأمية الثقافية، سواء كانت دينية، أو علمية بكل فروع العلوم النظرية والتجريبية، وقد تعالج أمراً من أمور التيارات الفكرية المعاصرة، وسوف نركز على المحاضرات الدينية، التى تلقى فى المناسبات التى لها صلة بالدين، كالهجرة، والإسراء والمعراج، أو ذكرى بدر وفتح مكة، وغيرها من المناسبات التى يحتفل المسلمون بذكراها على مدى العام، ففيها يركز المحاضر على مقدمات الحدث، ويعرض لمساره، ثم يستنتج منه ما يثير وجدان المسلمين، ويؤجج عواطفهم، مع البعد عن الخرافات والأساطير التى تغيب العقول وتطمس على الأفهام، وذلك بتأجيج عواطف وقتية تخمد بعد وقت قصير، ولا تخلف وراءها أثراً يفيد المسلم فى حياته.

---

(١) حول الحوار راجع كتابنا: حوار الأديان.

(٢) إذا أطلق لفظ " **محاضرة** " فى اللغة العربية بدون قيد، احتمل المعنى أن يكون المقصود: محاضرة جامعية، أى التى يلقيها الأستاذ فى مدرج الجامعة على طلابه، أو محاضرة عامة للجمهور، ويتعين المقصود بالقيد، فيقال: محاضرة جامعية، أو محاضرة عامة. ولا يوجد هذا القيد فى اللغات الأجنبية، فمثلاً: فى اللغة الألمانية يعبر عن محاضرة الجامعة بلفظ: (Vorlesung)، فكلمة: (Lesung) اسم من الفعل " قرأ "، وفاصلة (vor) معناها " أمام" والمعنى أن الأستاذ يقرأ أمام الطلاب ما أعده لشرح درس من الدروس المقررة عليهم. أما المحاضرة العامة فيطلق عليها (Vortrag)، ومعناها: توصيل المعلومات التى أعدها المحاضر للجمهور فى موضوع معين يختاره هو حسب المناسبة التى يلقى فيها محاضرته، فلا يحتاج المتحدث باللغة الألمانية إلى إضافة ما يبين أنها محاضرة عامة، أو محاضرة، كما هو الحال فى اللغة العربية، إذ لكل منهما كلمة تختلف عن الأخرى.

كذلك من أهداف المحاضرة العامة فى المجال الدينى ما يركز على فريضة من فرائض الإسلام، كالزكاة، والحج، فيبين المحاضر فلسفة الإسلام فى فرضها، ويشرح الجوانب الإيجابية التى تعود على الفرد — وبالتالى المجتمع — من تأديتها. وليست موضوعات المحاضرة الدينية بعيدة عن بيان رأى الإسلام فى الأحداث المعاصرة، سواء كانت محلية أو عالمية، وكيفية معالجته لما يحدث فى المجتمع من انحرافات وسلوكيات، حتى تستقيم حياة الفرد، ويسلم المجتمع من ظهور تداعيات التفكك والانهيار، ناهيك عن تناول الأخلاق الإسلامية، وحث المسلمين على الالتزام به، ويدعم ذلك كله بالقصص والمواقف التى حدثت فى المجتمع عبر تاريخ المسلمين، مع البعد عن الخرافات والأساطير فى هذا الجانب.

ومن الموضوعات التى تتطرق إليها المحاضرات العامة فى كثير من الأحوال، ما يشغل بال المسلمين من قضايا تتعلق بحياتهم، كالعلاقة بين السياسة والدين، وصلاحية الفقه الإسلامى للتشريع فى المجتمع المعاصر، وموقف الإسلام من الديمقراطية وعلاقتها بالشورى، وآراء الفقهاء المختلفة والمتعددة، وصلتها بالنصوص القرآنية، ومساحة حرية القاضى فيما يعرض عليه من قضايا، وغير ذلك من الأمور المستحدثة فى المجتمع الإسلامى المعاصر. ولكى تكون المحاضرة ذات أثر فعال لدى المسلمين، سواء كانوا من العامة، أو من أولى الرأى فى الفكر المعاصر، ينبغى على المحاضر أن يكون ملماً بآراء الفقهاء، حتى يختار منها ما يلائم العصر، وأن يكون على بينة بالنظم العالمية حتى يستطيع المقارنة بينها وبين الفقه الإسلامى، بالإضافة إلى معرفته الواسعة بالضرورات اللازمة لحياة الناس، أفراداً وجماعات، حتى تكون لديه القدرة على طرح صيغ للحياة يمكن تطبيقها، وتكون لها إمكانية تلبية هذه الضرورات، وفى الوقت نفسه لا تخرج عن الإطار العام الذى حدده الإسلام للحياة.

ومن الجدير بالذكر أن فائدة المحاضرة تكون عامة وشاملة، إذا كانت مكتوبة، حتى يستفيد منها أكبر عدد ممكن من الذين لم يتسر لهم سماعها، كما تضيف كتابتها فى الوقت نفسه لبنة من لبنات البناء الحضارى على المستوى الفكرى والتشريعى، لأن بناء الحضارات يقوم على ما يكتب ويُدَون، لأن الكتابة ركيزة أساسية فى التقدم على جميع المستويات، وارجع فى ذلك إلى ما بيناه فى تفسير أول آية نزلت من القرآن الكريم، وذلك فى كتابنا: "مفهوم الأسطورة فى القرآن الكريم".

٥. **الكتابة**: وهى أنواع: رسالة، ومقال، وبحث، وكتاب،

– فكتابة الرسائل وسيلة من وسائل الدعوة منذ فجر الإسلام، فقد كتب رسول الله ﷺ – أى أملى على من يكتب – رسائل إلى ملوك وأمراء الدول والإمارات المحيطة بالجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، فكتب إلى قيصر ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى النجاشى ملك الحبشة، وإلى المقوقس عظيم القبط بمصر. واختلفت صيغ الرسائل باختلاف عقيدة من توجه إليه الرسالة؛ فأسلوب الرسائل إلى ملوك المسيحيين غير أسلوب الرسالة التى وجهت إلى ملك الفرس الذى كانت عقيدته غير سماوية، وهذا أسلوب يجب أن يلتزم به المسلمون فى كتابة رسائلهم إلى من يدعوهم إلى الإسلام؛ فقد راعى الرسول ﷺ ذلك حين كتب إلى هرقل المسيحى، حيث كان نص الرسالة ما يلى: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام الله على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم ! تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

أما رسالته إلى كسرى ملك الفرس فكان نصها كما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم الفرس.

سلام على من اتبع الهدى، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، وإن تُسْلِم تَسْلَم، وإلا فإن عليك إثم المجوس.

وقد استمر المسلمون فى ممارسة هذه الوسيلة فى مجال الدعوة عبر تاريخ المسلمين حتى اليوم، وإن اختلفت الدواعى، وتعددت الصيغ، ومن أشهرها فى العصر الحديث ما يوجه إلى المؤسسات والمراكز الإسلامية من أسئلة عن الأحكام الدينية فيما يحدث للأفراد أو على المستوى العام؛ إذ تجيب هذه المؤسسات والمراكز على ما يوجه إليها من استفسارات برسالة تشرح فيها ملابسات الحدث وآراء العلماء فيما يجب اتباعه، أو إقراره على مستوى الدول، وقد تُرْسَل هذه الرسائل إلى وسائل الإعلام المختلفة لبيان رأى الإسلام فيما يدور من نقاش حوله على مستوى التيارات الفكرية، أو فى دهاليز وأروقة مؤسسات الدولة: التشريعية، والقضائية، والتنفيذية.... وغيرها مما يتعلق بشئون الحياة.

- **أما المقال:** ومؤنثه: مقالة، والجمع: مقالات، فقد استعمل هذا المصطلح فى الفكر الإسلامى بمعنى: الآراء، ومن أشهره: مقالات الإسلاميين للأشعرى، الذى عرض فيه آراء العلماء فى مسائل علم الكلام.

ويتطلب المقال من كاتبه أن يختار موضوعاً معيناً، يعرف جزئياته، ويدرك

عناصره، ويلم بقدر كافٍ من المعلومات عنه، بشرط أن يكون مركّزاً على ما يهم القارئ، ويشغل موضوعه فكره، وتختلف الآراء حوله، فيهدف الكاتب إلى ما يزيل الغموض عن جوانبه، ويجلى للقارئ ما التبس عليه من مفردات، أو يعطيه من المعلومات عن المشكلة، ما ينير له الطريق، ويأخذ بيده إلى الأهداف التى تقوده إلى ما ينفعه فى دنياه، وينال منه الجزاء فى أخراه. ولا يصل الكاتب إلى هذا إلا إذا حدد الهدف تحديداً واضحاً، وعالج عناصر الموضوع بأسلوب سلس يصل إلى ذهن القارئ بسهولة، وكلما كان الموضوع متصلاً اتصالاً مباشراً بمشكلات الأفراد، ويلتحم بمعالجة الركائز الأساسية التى تقوم عليها بنية المجتمع، كلما كانت درجة تقبله عالية، وأثره فى النفوس عميقاً، وتزداد فاعليته فى علاج المشكلات، وتعم فائدته، إذ التزم الكاتب بعناصر أساسية فى كتابة المقال، وهى: يفتتحه بما يجذب انتباه القارئ، ثم يحدد الهدف منه، وذلك كمقدمة للدخول فى الموضوع، بشرط أن تكون متناسبة مع حجم المقال كمًّا وكيفاً. ثم ينتقل إلى الجزء الأكبر من المقال، ألا وهو شرح المشكلة وتحليلها حتى يصل إلى الهدف من كتابته، وذلك بأسلوب منطقى يتناسب مع مستوى قارئ وسيلة النشر، إذ كلما كان أسلوب الكتابة متناسباً مع درجة ثقافة القارئ، كان المعروض من الأفكار مفيداً، فالكتابة للعامة تختلف عنها للمثقفين، وبالتالى تختلف عما يعرض على قادة الفكر والمشتغلين بالنظريات الفلسفية والاجتماعية، وغير ذلك من مناحى الفكر والثقافة.

ويجب على من يكتب فى المسائل الدينية، سواء كانت عبادات، أو غيرها من مناحى الفكر الدينى، أن يلتزم بهذه القواعد فى عرض رأيه على القارئ، حتى يكون لكتابته صدى فى النفوس، وقبولاً لدى عامة الناس وخاصتهم، وبهذا

يكون المقال من أهم وسائل الدعوة إلى الله، سواء كان ذلك فى مجال التثقيف الدينى ومحو الأمية الدينية، أو فى آفاق التيارات الفكرية على المستوى المحلى والعالمى، عرضاً لقيم الإسلام وتعاليمه، ودحضاً لآراء المنكرين والمعارضين، وحواراً ومناقشة مع من يطلب الحقيقة ويسعى إليها.

ولن يقدر على هذا — ومازلت أكرر هذا التعبير حتى يستقر فى الأذهان — إلا المتخرج من الأزهر والكليات الشرعية، مع إلمامه بالتيارات الفكرية والعقدية المعاصرة.

- **البحث:** بحث الشيء يبحثه بحثاً: تعمق فى معرفته فمن يريد معرفة موضوع ما، يبحث عن حقيقته ويكشفها، وذلك بعرض المعلومات عن هذا الموضوع عرضاً بأسلوب منظم، فيتناول كتابة مقدمة، ثم يعرض لأجزاء البحث، شارحاً المصطلحات التى تمهد الطريق للوصول إلى العناصر الأساسية للبحث. وقد يحتاج الباحث إلى فصول — أو نقاط — تلقى الضوء على عناصر البحث وأساسياته، ثم ينتهى إلى الخاتمة التى تحتوى على الاستنتاجات المؤدية إلى تحقيق الهدف من كتابته.

ويتطلب البحث فى المسائل الدينية أن يكون لدى الكاتب ثقافة دينية واسعة بكل فروعها وأجزائها، وأن يكون متخصصاً بالفرع الذى يتعلق به موضوع البحث — فقهاً، حديثاً، تفسيراً، سيرة نبوية، تاريخاً إسلامياً، علم كلام بكل فروعه ومتطلباته: عقيدة، وأخلاقاً، ومسائل فلسفية ومنطقية -، بالإضافة إلى تمتعه بشروط الاجتهاد من: معرفة باللغة العربية، والعام والخاص فى التشريع، وأنواع الأمر من: وجوب، وندب، واستحسان، وغيرذلك من الأمور اللازمة للمجتهد، حتى يكون لاستنباطاته وزن وقبول فى مجال التشريع الإسلامى.

وعادة ما يقدم مثل هذا البحث لمؤتمر علمى، أو لندوة متخصصة، فينشر فى مجلات أو فى دوريات علمية، فلا يسمعها — فى المؤتمر أو الندوة -، ولا يقرؤها — فى المجلات أو الدوريات العلمية — إلا المهتمون بهذا الفرع العلمى، أو المتخصصون فى هذا الجانب من الفكر الدينى، ولهذا يجب على الباحث أن يتناول فى بحثه جميع الآراء التى قيلت فى هذا الموضوع، حتى تكتمل الصورة فى ذهن المتلقى، كى يدرك أن المسائل الدينية لها أكثر من رأى فى الفكر الإسلامى، وبالتالى فهى دليل على صلاحية التشريع الإسلامى لكل الشعوب على اختلاف مستوياتها الحضارية، ومناسبة لكل الأفراد، على تباين أحوالهم ومعيشتهم. ومن هذا الجانب يصبح البحث وسيلة من وسائل الدعوة، لأنه بواسطة اشتماله على الآراء المتعددة، والاتجاهات المتنوعة، يكون وسيلة لإقناع القاصى والدانى أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، مهما اختلفت الأقطار، وتباعدت العصور.

- **الكتاب**: ظل التثقيف الدينى، وتبادل الآراء بين العلماء شفوياً منذ بدء التاريخ الإسلامى، حتى بداية القرن الثانى الهجرى؛ فقد بدأ التدوين فى أواخر العصر الأموى، وانتشر رويداً رويداً حتى ازدهر فى العصر العباسى الثانى، حيث اشتمل التسجيل كل مادار فى المنتديات العلمية من أفكار، وما تحدث به الإخباريون (القُصَّاص) من حكايات وأقاصيص... حتى الأساطير والخرافات وجدت لها مكاناً فى الكتب، بل إن آراء الملاحدة والزنادقة، وأخبار دعاة اللهو والمجون تسربت إلى هذه الكتب، فاحتلت مكاناً فى التراث الفكرى للمسلمين. ولم تسلم الأحاديث النبوية من الوضع، فاختلط فيها الصحيح بالموضوع، فتشابكت الروايات، مما جعل العبء ثقيلاً على من قام بتدوين الحديث كالبخارى ومسلم وغيرهما، حيث بذلوا جهداً كبيراً فى فحص الروايات ليصلوا

إلى ماصح منها فيسجلوه فى كتبهم، ومعرفة ماهو موضوع من الروايات فيهملوه. كان هذا العمل شاقاً وعسيراً، فعلى الرغم من هذا الجهد، فقد تسرب إلى كتب الصحاح بعض الأحاديث الضعيفة. وبالتوازى مع هذا الجهد فى مجال الحديث النبوى، اجتهد العلماء فى مجالات الفكر الإسلامى المختلفة فى فحص الآراء، كلٌّ فى تخصصه لتنقيتها من الشوائب الفكرية، والآراء الدخيلة التى لا تستند إلى دليل صحيح، ولا يقرها منطق سليم، ولا يقبلها عقل واعٍ، قادرٍ على إدراك القضايا المتشابكة، وفهم الاتجاهات الفكرية المتداخلة. وعلى الرغم من هذا المجهود الذى بذله كثير من العلماء، كلٌّ فى تخصصه، فقد ترسخ فى التراث الفكرى كثير من الآراء الشاذة، وبقى فى طياته كم كبير من الأساطير والخرافات، وعليه فيجب على المشتغلين بالدعوة أن يختاروا من التراث ما يناسب الأفهام، ويتفق مع المعطيات الفكرية للمجتمعات المعاصرة، لأن الكتب التى دونت فى العصور الأولى، وإن كان كثير منها صالحاً لمخاطبة الجماهير فى تلك العصور، فإن عصرنا الحالى يتطلب ممن يمارس الخطاب الدينى أن يكون حكيماً فى الاختيار، ومدركاً لما يناسب العصر، وما لا ينبغى الاستشهاد به فى الوقت الحالى، وإلا كان لخطابه بعض الآثار السلبية التى تحجب نصاعة الإسلام وصلاحيته للتطبيق فى العصر الحديث، وخاصة إذا استغرق فى سرد القصص المغرقة فى الخيال باشتماله على أساطير وخرافات تنفر الكثير من المستمعين — أو على الأقل تذرع الشك فى قلوبهم — من الخطاب الدينى، وتصفه بكل نقيصة وابتذال، وبناءً عليه فعلى الداعية التمييز بين ما هو صالح من التراث فى مجال الدعوة، وما هو غير صالح، إذ أن كتب التراث ليست كلها صالحة للخطاب الدينى فى هذا العصر، كما أن من الآراء الفقهية ما لا يصلح للتطبيق فى المجتمع المعاصر.

لم يقتصر هذا التصور على كتب التراث، بل يشمل أيضاً ما يكتب وينشر فى العصر الحديث، وخاصة بعد ظهور الوسائل الحديثة التى سهلت الطباعة، فقد ساعدت هذه الإمكانات فى مجال الطباعة على إخراج كم هائل من الكتب فى المجال الدينى، حيث خاض هذا المجال أدعياء وأنصاف علماء، فنشروا ما عندهم من خرافات وأساطير، وما لديهم من بضاعة دينية مزجاة، فامتلأت الأرصفة بكتب ونشرات ساعد ما فيها على ظهور تيارات دينية فى المجتمع بعيدة عن صحيح الدين، فهى مليئة بالآراء المتطرفة والفتاوى المتشددة، والتصورات التى طمست سماحة الإسلام، وغيبت عقول كثير من المسلمين، فأبعدتهم عن القيم الإسلامية المتناغمة مع طبيعة الإنسان، أيًّا كان جنسه وعرقه، والملائمة لحياة الشعوب، مهما اختلف الزمان والمكان، فكانت هذه الظاهرة بمثابة غيوم حجبت تعاليم الإسلام عن العقلاء فى المجتمعات الإنسانية، وأبعدت عامتهم عن ساحة الإسلام بسبب الصورة المنفرة من الإسلام التى يرسمها أدعياء ظهروا على ساحة الدعوة، فشوهوها بجهلهم، ومسخوها بتفكيرهم الضيق، ومعلوماتهم التى لا تسمن ولا تغنى من جوع، وعليه فليس كل الكتب — سواء ما كان منها من التراث أو من المطبوعات الحديثة — يصلح وسيلة من وسائل الدعوة، بل الكثير منها يعرقل سير الدعوة فى العصر الحديث، ومن هنا يجب على القائمين بها، والممارسين للخطاب الدينى أن ينتقوا من الكتب ما يصلح لخطاب الجماهير، دون أن يؤثر سلباً على تصورهم للإسلام، ويختاروا منها ما يخاطب الفلاسفة والمفكرين بأسلوب يقنعهم بتعاليم الإسلام من الجانب العقلى، فلا يكون المهتم بأمور الدعوة حاطب ليل، بل ينبغى أن يتخير مما فيها، ولا يسمح بأن يدخل فى عمله إلا الجيد المنتقى، الذى يحيى الضمائر، ويهذب النفس، ويقنع العقلاء، إذ أن هذا الصنف من الكتب هو الذى يعتبر وسيلة من وسائل الدعوة.

المؤسسات والمراكز العلمية

لا يقتصر العمل فى مجال الدعوة على الأفراد، فمهما بلغت من القوة والتأثير لا تصل إلى الغاية المرجوة من وصول دعوة الإسلام إلى كل ركن من أركان المجتمعات الإنسانية، ولا تحيط القوة الفكرية للأفراد إذا عملوا منفردين إلى ما ينبغى رسمه من مناهج، تشمل جميع أنواع الخطاب للجنس البشرى، على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وتباين عقائدهم وأديانهم، وتنوع أساليب حياتهم ونظم معيشتهم. وليس لدى الفرد من الوسائل التى تساعده على نشر الإسلام فى أكبر مساحة جغرافية ممكنة، ولا يملك الفرد ما يساعده على تبليغ الدعوة إلى أكبر عدد ممكن من الناس، ولهذا كان لابد لنشر الإسلام على أوسع نطاق من مراكز ومؤسسات ترسم المناهج، وتؤهل الأفراد، وتعد وسائل النشر المتعددة، حتى تصل الدعوة إلى الناس جميعاً. ومما لاشك فيه أن طبيعة هذه المؤسسات والمراكز تختلف من عصر لآخر، طبقاً لتطور هذه الوسائل، وملاءمتها للاختراعات الحديثة فى هذا المجال؛ فقد اختلفت هذه الوسائل فى العصر الحديث عنها فى العصور الأولى من تاريخ الإسلام إذ كانت الوسائل آنذاك فى:

١. **المساجد:**

لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فقط، بل كان مركزً علميًّا وثقافيًّا بالإضافة إلى أنه للعبادة والخطب والدروس الدينية، مما جعله أكبر معهد للتوجيه والتربية، فكان مسجد عمرو بن العاص، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، والحرم المكى والمدنى وغيرها من المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات فى عصرنا الحالى.

فمنذ بداية الإسلام اتخذ الرسول ﷺ المسجد للدراسة؛ ففى البخارى عن

أبى واقد اللَّيْثىّ، قال: " بينا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، فوقفا عليه، فرأى أحدهما فرجة فى الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه "[١]

استمر المسجد مكاناً لتعليم القرآن والحديث، وللقُصَّاص يعظون، والفقهاء يعلمون الفقه مدة العهد الأموى، فيذكر ابن خلكان أن رَبيعَةَ الرَّأى كان يجلس فى مسجد رسول الله ﷺ فى المدينة، ويجلس فى حلقته مالك بن أنس والحسن وأشراف أهل المدينة ويُحدقون به. وكان مسجد البصرة مركزاً لحركة علمية كبيرة فى العهد الأموى، فَحَوْلَ الحسن البصرى وفى حلقته نشأت المباحث الكلامية، واعتزل واصل بن عطاء حلْقَة الحسن وكون له حلقة، بل كان هناك بجانب حلقات علوم الدين حلقات لعلوم العربية. قال ياقوت: " كان حماد بن سلمة بن دينار يمر بالحسن البصرى فى الجامع، فيدعه ويذهب إلى أصحاب العربية."

ولما تنوعت العلوم فى العصر العباسى تنوعت كذلك حلقات الدروس، فهناك حلقات يدرس فيها النحو، كالذى حكى ياقوت أيضاً عن الأخفش، قال: " وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائى، فصليت خلفه الغداة، فلما انفتل من صلاته وقعد بين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان سلمت عليه وسألته عن مائة مسألة، فأجاب بجوابات خطأته فى جميعها...إلخ ". وكان المعتزلة يعلمون الكلام فى مسجد المنصور ببغداد، وكان هناك حلقات للشعر والأدب، ففى سنة

---

(١) جـ ١ صـ ٣٦.

٢٥٣هـ رحل الطبرى إلى مصر، وأملى فى مسجد عمرو شعر الطِّرمّاح عند بيت المال فى الجامع.

ولم ينكر الناس إنشاد الشعر فى المسجد حتى ماكان فيه غَزَل، فإن كعب بن زهير دخل على النبى ﷺ قبل صلاة الصبح، فمثل بين يده، وأنشد: " بانت سعاد فقلبى اليوم مبتول ". كذلك كان المسجد محلًّا لإنشاد الشعر ونقده والتلاحى فيه، فيروى الأغانى أن الكُمَيْت بن زيد وحمَّاداً الراوية اجتمعا فى مسجد الكوفة، فتذاكرا أشعار العرب وأيامهم، فخالفه حماد فى شيء ونازعه، فقال له الكُمَيْت: أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ قال: وما هو إلا الظن ؟ هو والله اليقين. ثم تناظرا وتساءلا وأرجآ إلى أجل آخر فى خبر طويل ". وحكى المرْزُبانى فى الموَشح أن مسلم بن الوليد كان يملى شعره فى المسجد، وأن الناس كانوا يتناظرون فى الشعر فى المسجد. وكان أبو العتاهية يجلس فى المسجد وحوله الناس. وقال أبو محمد اليزيدى: كان أبو عبيدة يجلس فى مسجد البصرة إلى سارية، وكنت أنا وخَلَفٌ الأحمر نجلس جميعاً إلى أخرى...وعلى الجملة فقد كان المسجد أهم معهد للثقافة فى الإسلام.(١)

٢. **الكُتَّاب**: والجمع: كتاتيب، وقد اختلف اللغويون فى وضعها الأصلى. ففى اللسان: "الكُتَّاب موضع تعليم الكُتَّاب، والجمع الكتاتيب والمكاتب". وقال المبرد: "الْمَكْتَبُ موضع التعلم، والْمُكْتِبُ المُعَلِّم، والْكُتَّابُ الصِّبْيان؛ ومن جعل الموضع الكُتَّاب فقد أخطأ ". ولكن يظهر أن كلا من الْكُتَّاب والمكتب استعمل فى هذا العصر لمكان تعليم الصبيان، فقد روى الأغانى عن إسحاق المَوْصَلىّ أن أباه " إبراهيم الموصلى " أُسْلِمَ إلى الكُتَّاب فكان لا يتعلم شيئاً، و

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ ١ صـ ٦٠ - ٦١.

لايزال يُضْرَب ويُحْبَس ولا ينجع ذلك فيه، وهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء ". وجاء فى موضع آخر: " أن علىَّ بن جبلة لما نشأ أُسْلِمَ فى الكُتَّاب".

وروى الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين " أن من أمثال العامة " أحمق من مُعَلِّم كُتَّاب ". وقال ابن خلكان فى ترجمة أبى مسلم الخراسانى: " أنه نشأ عند عيسى بن معقل، فلما ترعرع اختلف هو ووالده إلى المَكْتَب"، وكان ذلك فى العصر الأموى بالضرورة. وبعض المكاتب كان لتعليم مبادئ القراءة والكتابة والقرآن، وبعضها كان يعلّم فيه أيضاً اللغة وما إليها. قال ابن قتيبة: " ومن المسلمين علقمة ابن أبى علقمة مولى عائشة، كان يروى عنه مالك بن أنس، وكان له مكتب يعلّم فيه العربية والنحو والعروض، ومات فى خلافة أبى جعفر المنصور ". وبعض المعلمين كانوا يعلمون حِسْبَةً، لا يأخذون على تعليمهم أجراً. روى ابن قتيبة: " أن الضحاك بن مزاحم وعبد الله بن الحارث كانا يُعَلِّمان ولا يأخذان أجراً ". وبعضهم كان يأخذ أجراً، ومن هؤلاء من كان يأخذ خبزاً من الصبيان؛ وقد هجا بعضهم الحجاج " وكان هو وأبوه يوسف معلّمين ":

أينسى كليبٌ زمان الهـــــزال * وتعليمه سورَة الكوثـــرِ؟

رغيف له فَلْـــكَةٌ مـــا تُرَى * وآخر كالقمر الأزهـــــرَ

ورووا عن الشافعى أنه قال: " كنت يتيماً فى حجر أمى فدفعتنى فى الكُتَّاب ولم يكن عندها ما تعطى المعلم، فكان المعلم قد رضى من أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمى ما تعطينى أشترى به القراطيس،

فكنت إذا رأيت عظماً يُلَوّح آخذه فأكتب فيه...إلخ "[١].

٣. **المكتبات**: كان فى الأقطار التى فتحها المسلمون مكتبات كبيرة، حافظ عليها العرب، وأضافوا إليها من كل الأقطار وبلغات مختلفة، فقد جمع العلماء — وألفوا — كتباً وصحفاً كثيرة، رُوى أن أبا عمرو بن العلاء، وقد وُلِد فى سنة ٧٠ه ملأت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء بيتاً له إلى قريب من السقف. وعندما نشطت حركة التأليف والترجمة فى العصر العباسى، وعظمت صناعة الورق، وتبع ذلك ظهور حركة الوراقين، ووجود أمكنة لهم تتخذ مباءة للعلماء والأدباء، يترددون فيها، كثرت المكتبات وذخرت بالكتب، فكانت أكبر مكتبة وصل إلينا خبرها "خزانة الحكمة " أو"بيت الحكمة "، إذ كانت مكتبة ومعهداً ومرصداً، أنشأها الرشيد ونماها المأمون، قال ابن نباتة عند الكلام على سهل بن هارون: " وجعله كاتباً على خزائن الحكمة، وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليها أحد... فأرسلها إليه واغتبط بها المأمون، وجعل سهل بن هارون خازناً لها".

لم تكن هناك مرحلة معينة للتعليم فى هذا العصر، بمعنى أنه: ليس هناك مرحلة للتعليم الأولى أو الابتدائى ومرحلة للثانوى.. وهكذا؛ إنما كانت هناك مرحلة واحدة، تبدأ بالكُتّاب أو بالمعلمين الخاصين، وتنتهى بأن تكون له حلْقة فى المسجد؛ غاية الأمر أن من المتعلمين من يُتِم هذه المرحلة وقليل ما هم، وآخرون يقفون فى نصف الطريق أو ربعه. فمن الناس من يتعلم فى المكتب حتى

(١) المصدر السابق صـ ٥٨ — ٥٩.

يقرأ ويكتب، ويحفظ ما يتيسر من القرآن ويحسن أمور دينه، ثم ينصرف إلى عمل من صناعة أو تجارة، ومنهم من يلزم الشيوخ يأخذ عنهم، وينتقل من شيخ إلى شيخ، بل من بلد إلى بلد، حتى يكتمل علمه فيحلق له حلْقة.

كما لم يكن هناك منهج خاص تسير عليه الأمة، فترى الكتَّاب يُقتصر فيه على القراءة والكتابة وتعليم القرآن، ونرى المعلمين فى الكتاتيب أحياناً يعلمون اللغة والنحو والعروض، وكل شيخ بعد ذلك له طريقته: فالفقهاء من أصحاب الرأى يكثرون من تفريع المسائل وفرض الفروض، ويبيحون الأسئلة حتى فيما لم يقع من الحوادث، وأصحاب الحديث يمتنعون عن ذلك ولا يجيزونه.... وهكذا.

وفى المساجد الكبري حلقات من الدروس مختلفة الألوان: هذه حلقة فقه، وبجانبها حلقة نحو، وثالثة حلقة للمتعلمين، ورابعة لإنشاد الشعر، وخامسة لرواية الأخبار، وسادسة للحديث وهكذا. والمتعلم حر أن يذهب إلى أية حلقة، وإلى أى شيخ، فإذا أتم علم شيخ انتقل إلى علم آخر أو شيخ آخر، وقد يتخصص فى الكلام، فينصحه ناصح أن يكون فقيهاً فيفعل.....وهكذا.[1]

كذلك كان باب التعليم مفتوحاً لكل من شاء، متى استطاع أهله أن ينفقوا عليه أو استطاع هو أن يجد ما يقتات به. ولهذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من طبقات فقيرة، كأبى العتاهية، فقد كان خزافاً، وكان أبو تمام يسقى الناس بالجرة فى جامع عمرو بن العاص بمصر، وكان أبو يوسف القاضى فى صباه قصاراً، وكان يهرب من القصار ويذهب إلى حلقة أبى حنيفة، وأمثال هذا كثيرة.

ولم تكن هناك – أيضاً – درجات علمية يمنحها من أتم الدراسة بعد

(١) المصدر السابق صـ ٧٢ – ٧٣.

امتحان، إنما كان الامتحان امتحان الرأى المحيط به من علماء ومتعلمين، فمن آنس من نفسه القدرة على أن يجلس مجلس المعلم جلس وتعرض لجدال العلماء ومناقشتهم، وكان فى هذا ما يكفى لحماية العلماء من المتطفلين والجاهلين؛ فنرى واصل بن عطاء يعتزل مجلس الحسن البصرى لَمـــّا خالفه فى الرأى، وشعر من نفسه القدرة على أن يقرر مذهبه، فأنشأ له حلقة، وأبو يوسف حلق حلقة، فسأله سائل عن مسألة فقهية فلم يعرف جوابها، فعاد إلى حلقة أبى حنيفة.(١)

ومن هذا يتبين أن المسجد والكتّاب والمكتبة كانت من وسائل الدعوة، إذ غالباً ما يتعلم المرء فى الكتاب حفظ القرآن الكريم وحسن تلاوته، وأحياناً يدرس قواعد اللغة والشعر. وفى المسجد يتثقف فى العلوم الإسلامية: فقهاً، وتفسيراً للقرآن الكريم، وعقيدة، وتاريخاً. وفى المكتبة يطلع على ما دونه العلماء والمتخصصون فى الكتب، فيزداد علماً، وتنمو ثقافته فى العلوم الإسلامية، التى ربما — عند القدرة — تساعده على شرح مبادئ الإسلام وقيمه للآخرين، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. وتقدم الكتب أيضاً لغير المسلمين تعاليم الإسلام وشرائعه، فتلعب بذلك دوراً مُهِمًّا فى تبليغ رسالة الإسلام.

٦. **المذياع:** (مسموع ومرئى): أذاع الخبر يذيعه: نشره على أكبر قدر ممكن من الناس، إذ المذياع آلة حديثة، يحمل الأثير بواسطتها الصوت الذى يبث بواسطتها وينشره فى الفضاء الكونى، وبقدر ما فى هذه الآلة من إمكانات تكنولوجية بقدر ما توصل الخبر — والصورة أيضاً — إلى أكبر مساحة من الفضاء، ولذا فهى من الوسائل الحديثة لتوصيل الخطاب الدينى، ووسيلة انتشار

(١) المصدر السابق صـــ ٧٤.

واسعة لتعاليم الإسلام؛ إذ يصل الصوت – والصورة – لمعظم سكان الأرض تقريباً، سواء كان المتلقى فى متجره ومصنعه، وفى حقله وضيعته، وفى بيته ومكتبه، وفى سيارته ووسيلة مواصلته، أيًّا كان نوعها وطبيعتها، ولهذا ينبغى أن يكون الخطاب الدينى المرسل عبر هذه الآلة ملائماً لعامة الناس، فلا يقتصر على مسائل خاصة بشعب دون آخر، ولا بسكان منطقة محصورة فى ركن من أركان البسيطة، بل يُخَاطب العنصر المشترك بين سكان الأرض، ويتناول مشاكل الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث خصوصيات شعب أو سكان منطقة، ويُصاغ الخطاب بأسلوب يفهمه العامة، ولا يمل منه المتخصصون، وينصرف عنه المفكرون.

شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت): يجب أن تكون الموضوعات التى تنشر بواسطتها ملائمة لظروف الإنسان كإنسان، بصرف النظر عن جنسه وبيئته وعقيدته حتى يكون التأثير عاماً وشاملاً، وياحبذا لو كانت متعلقة بالأحداث الدولية، فيعرض فيها رأى الإسلام فى معالجة هذه الأحداث كالسلم، والتعاون بين الشعوب، وحرية الرأى، واحترام الآخر... وغيرها من القضايا التى يهم بها المجتمع الدولى.

ولهذا ينبغى على المراكز والمؤسسات الدعوية أن ترسم منهجاً للمتدربين يؤهلهم للقيام بهذه المهمة، بحيث يتقنون متطلبات استخدام هاتين الوسيلتين (المذياع وشبكة العلومات الدولية) فى مجال الدعوة، فلا يثيرون المشاكل المحدودة على الملأ، ولا يتناولون مسألة محلية، أو تاريخية طوى الزمن أسبابها، ومحت العصور مقتضيات وجودها، وقضى التقدم الحضارى على ضرورة وجودها لحياة الإنسان، أو لتماسك المجتمع، فهى فى خبر كان، لا تحتاج حياة الناس

إليها، ولا يتطلب نهوض المجتمع إلى التمسك بها.

وينبغى أن تشتمل الموضوعات التى تدور حولها الأحاديث فى هذه الوسيلة — المسموعة والمرئية — على:

١. **القرآن الكريم**: حفظاً وتلاوة، فضلاً عن تجويده بالأصوات الحسنة للتأثير على وجدان وعواطف المستمعين، وخاصة المسلمين منهم.

٢. **الفقه**: يتناول الأحكام الفقهية، المتعلقة بالعبادات: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والزواج والطلاق، بحيث يكون التركيز على المتفق عليه فيها، بعيداً عن الآراء المتعددة للفقهاء، حتى لا يحتار المسلم بين هذه الآراء، ولا ينفر غير المسلم من كثرتها، وخاصة المتشددة منها، وغير الملائمة لطبيعة العصر ومتطلبات الحياة، بل يكون التركيز على ما يمكن تطبيقة فى سهولة ويسر. وفى عرض أحكام الزواج والطلاق يُختار من الآراء ما يحفظ تماسك الأسرة، ويعمق عاطفة المحبة والوئام بين أفرادها.

٣. **التفسير**: يتناول الحديث فى التفسير الآيات التى تدعو إلى التعاطف والرحمة بين الأفراد، وتحث على التماسك والالتحام بين العناصر المختلفة فى الأمة، حتى ولو كانوا على دين غير الإسلام، حتى يقوى المجتمع ويشتد عوده، بحيث يكون قادراً على الإنتاج، والدفاع عن الأمة ضد المعتدين. ولا يجوز تناول الآيات التى اختلف العلماء فى تفسيرها، وخاصة ما يتعلق بالخلافات الحادة فى قضايا علم الكلام، الأمر الذى يقتضى أن يكون التفسير بعيداً عن القضايا الفلسفية، وفى الوقت نفسه يبتعد عن الخرافات والأساطير التى تغيب عقل الأمة، وتُوَجِّه المسلمين إلى الركون والكسل الذى يتنافى مع قيم الإسلام وتعاليمه التى تدعو إلى استعمار الأرض والبحث فيما حول الإنسان، سواء ما تعلق منها

بالكون وآفاقه، أوما يتصل بالأرض وما فى باطنها، وكذلك ما عليها من نبات وحيوان وأنهار بما فيها من كنوز وأسماك... حتى الإنسان نفسه توجه الخطاب الربانى إلى البحث فى خلقه وتكوينه وما يتعلق به من أجهزة بيولوجية ونفسية، وما يلحقه من عوارض وأمراض.

٤. **الحديث:** يُختار من الأحاديث ما يفسر القرآن الكريم، وما يفصل أحكامه، ويبين غريبه، وكذلك ما يتفق مع المسلمات العقلية والنظريات العلمية، مع التركيز على ما يهذب الأخلاق ويُقَوِّم السلوك، وما يدعو إلى السلام بين الشعوب والأفراد، والأمن والاطمئنان فى المجتمع، بعيداً عن مشكل الحديث، وما يصطدم ظاهره مع مسلمات عقلية، أو نظريات علمية، أو يتنافى مع صريح القرآن الكريم، وما استنبط منه من أحكام وقيم وتعاليم فى مجالى التشريع ونظم الحياة.

٥. **التاريخ:** يتناول أحداثه منذ بدء الوحى حتى عصرنا الحالى، مركزاً على الأحداث التى توقظ فى المسلم الشعور بالانتماء للوطن الإسلامى، وتقوى الروابط بين المسلمين، على اختلاف أقطارهم، وتباعد بيئتهم الجغرافية، وتنمى فيهم عاطفة التلاحم والتعاطف، حتى يقوى فيهم الاستعداد لمد يد العون لمن يحتاج، ومساعدته للضعيف منهم، والوقوف بجانب من يتعرض منهم للاعتداء، ومساعدة من يحتاج للمساعدة فى جميع مجالات الحياة: فى الاقتصاد، والتعليم، ومواجهة الكوارث الطبيعية، وتبادل الأبحاث العلمية، وغيرها من مجالات الحياة المتعددة، حتى يشتد عوده ويقوى، وبذلك تقوى الأمة جمعاء، فلا تعتريها مرض، ولا يتخلل فى حياتها فيروس الضعف والانحلال، فهم جميعاً — على اختلاف أقطارهم — أقوياء بتماسكهم، وتعاطفهم، ومساندة القوى فيهم الضعيف، والأخذ بيد من يتأخر منهم عن ركب الحياة المعاصرة. ويجب تجنب

الأحداث السلبية فى التاريخ الإسلامى من خلافات وحروب ونزاعات، سواء كانت فكرية أو غير فكرية، حتى لا يصاب المستمع بالإحباط، أو الشك فى إسلام المتنازعين عبر التاريخ الإسلامى، وذلك لغياب التحليل العلمى لهذه الأحداث عن كثير من المستمعين.

٦. **الأخلاق:** تكون المادة المذاعة فى هذا المجال متضمنة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدعو الإنسان إلى الالتزام بالأخلاق الفاضلة، كالصدق، والأمانة، والسلوك الحسن مع من يتصل به: أهله، جيرانه فى السكن، زملائه فى العمل، ومع من يشاركه فى الوطن، ومن يتعامل معه فى البيع والشراء، وغير ذلك من السلوكيات بين فرد وآخر، أو بين مجموعة وأخرى، أو بين شعب وشعب مادام مسالماً لا يعتدى عليه أو يناصر عدواً له. وعليه فيختار من الآيات ما له صلة بتقويم الإنسان وتهذيب أخلاقه، وغرس حب العمل وإتقانه فى نفسه وكيانه، حتى يكون عضواً صالحاً فى بناء أمة قوية متماسكة البنيان، لا تهزها الأعاصير، ولا تنال منها نوائب الدهر.

فعلى من يستعمل هذه الوسيلة فى توصيل الخطاب الدينى إلى المستمعين أن يراعى مايلى:

١. عدم الغلو والتشدد فى بيان وشرح الأحكام الفقهية.

٢. البعد عن الخرافات والأساطير التى تُغَيِّب العقل، أو تدعو إلى التواكل والكسل؛ بل يختار من القصص ما يغرس الفضائل فى النفوس، ويهذب الأخلاق، ويدعو إلى العمل والاجتهاد فى مجالات الحياة المختلفة، بعيداً عن الاسترسال فيما يتنافى مع المسلمات العقلية، ويصطدم مع ما اصطلح عليه الناس من عادات وتقاليد مادامت لا تخالف نصاً شرعياً واستنباطاً فقهياً متفقاً عليه.

٣. تجنب عرض الآراء المتعددة للفقهاء فيما ليس فرضاً؛ فضرر ذلك أكثر من نفعه، وكذلك البعد عن آراء علماء الكلام فى مسائل العقيدة حتى لا يتسرب الشك إلى نفوس ضعاف الإيمان من العامة، ويقوى عناد المفكرين ضد الشريعة الإسلامية.

٤. أن يكون أسلوب العرض مناسباً لفكر وثقافة أكبر عدد من المستمعين؛ فلا يترل إلى المستوى الذى يصرف كثيراً من متوسطى الثقافة عن الإنصات للخطاب الدينى، ولا يمعن فى التعقيد اللغوى والإبهام الفكرى، حتى يفهمه الغالبية من المستمعين، بل يكون الأسلوب متقناً، بحيث يفهمه العامة، ولا يمل منه المتخصصون.

٥. لا ينبغى عرض الآراء الشاذة، ولا الأحكام التى لا تتناسب مع متطلبات العصر وظروف الحياة التى يشترك فيها الناس جميعاً، على اختلاف أقطارهم، وتباعد بيئتهم الجغرافية، بل يتخير الأسلوب المناسب والملائم للعصر، والعام الذى يشترك فيه جميع شعوب الأرض قاطبة.

٦. لا ينبغى أن تذاع الفتاوى فى هذه الوسيلة، لأن من الأمور المسلم بها — بل الواجب عمله — أن يُصْدر المفتى فتواه طبقاً لظروف الـمُسْتَفْتِى وأحواله وملابسات معيشته، بحيث تكون فتواه ملائمة له، دون عنت أو حرج، ومن غير أن يناله ضرر من جراء تطبيق هذا الرأى دون غيره؛ ففى اختلاف آراء الفقهاء وتعددها مساحة واسعة ليختار المفتى منها مايناسب ظروف كل الناس على اختلاف أحوالهم، وبيئاهم، وتباين عصورهم، فإذا اختار المفتى رأياً واحداً — لا يناسب كل الناس — وأذاعه، فقد يترتب على ذلك عنت وحرج فى تطبيقه لمجموعة من الناس، وقد يتسبب ذلك فى نفور بعض الشعوب من الشريعة

الإسلامية، لأن تطبيق هذا الرأى يتنافى مع طبيعة حياتهم، ولتوضيح ذلك أسوق هذا المثل:

لو سئل فقيه عبر الأثير عن حكم عقد المرأة زواجها بنفسها دون ولى، فإن كان الجواب أن هذا العقد باطل، طبقاً لما يراه المالكية والشافعية والحنابلة، فسوف يحدث هذا الجواب صدمة عند الشعوب التى قطعت شوطاً كبيراً على طريق التقدم الحضارى، حيث تبوأت المرأة عندهم مراكز القيادة والريادة، فعند سماع هذه الفتوى عبر الأثير، سوف يكون ردهم عليه مايلى:

إذا كانت المرأة عندنا تقود مؤسسات كبيرة، حيث يكون تحت رئاستها آلاف العمال ومئات المهندسين والخبراء، وتعقد صفقات بمليارات الدولارات، فكيف لايكون لها الحق فى مباشرة عقد يتعلق بها، ويؤثر على حياتها.

وإن كان جواب المفتى أن العقد صحيح مادامت المرأة بالغة عاقلة، طبقاً لرأى الأحناف، فسوف يكون الجواب صادماً للمستمعين فى المجتمع المحافظ، ويترتب عليه ما لا يحمد عقباه، إذ عندما تسمع فتاة ذلك تندفع إلى تطبيقه، مادام ذلك صحيحاً دينياً، فتعقد زواجها دون ولى، فيستتبع ذلك ما يعده المجتمع المحافظ " فضيحة " لعائلتها؛ إذ يرون أن هذا العمل جريمة شنعاء، ارتكبتها الفتاة، فألحقت بذلك العار والخزى لعائلتها والمتعلقين بها نسباً وصهراً.

أما إذا كان السؤال عبر شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، فيجب أن يكون الجواب شاملاً لآراء العلماء فى هذه المسألة، مبيناً ملاءمة كل رأى للظروف المناسبة، أى متى يطبق، وكيف يطبق ؟ كى يأخذ صاحب الحالة ما يناسبه من الآراء المعروضة.

* * *

خاتمة

يتعرض الخطاب الدينى فى الآونة الأخيرة لهجوم شديد، متنوع الأسباب، ومتعدد الصيغ؛ فتارة يُرْمَى بأن أساليبه ليست عصرية، فهى أشبه بأساليب رجال الدين فى القرون الوسطى، وتارة تُلْصَق به تهمة ظاهرة التشدد والغلو فى المجتمع، أو يُتَّهَم بأنه السبب فى ظهور الجماعات التكفيرية، وأن الفرق الإرهابية المسلحة تتخذ فتاوى بعض الممارسين له مرجعية لها، وأخرى يستدل المفكرون على رفضهم ومعارضتهم لاتخاذ الفقه الإسلامى أساساً للتشريع فى المجتمع المعاصر على ما يصرح به بعض الممارسين للخطاب الدينى فى مجال الحياة العامة.

ولا يستطيع أحد أن ينكر هذه الاتهامات وسط هذه الفوضى فى مجال الدعوة الإسلامية؛ لأنها تستند إلى دعاوى أناس ليس لهم من الفكر الإسلامى إلا قشور لاوزن لها، حصلوا عليها مما يسمى مراكز الدعوة؛ إذ ما يُدَرَّس فيها لا يؤهل أحداً لممارسة الخطاب الدينى على الوجه الأكمل، وإنما قصارى ما تقدمه مختارات من الفكر الإسلامى لمحو الأمية الدينية عند من يلتحقون بها، وقد تركز هذه المختارات على الآراء المتشددة والمتعصبة فى الفقه الإسلامى، لأن المشرف عليها، والمنفذ لها، ليس له من المعرفة إلا هذا النوع من الفكر الإسلامى. وكثيراً ما يخرج من يَدْرُس فى هذه المراكز على الملأ، ويباشر الخطاب الدينى، مدعياً أنه يحمل شهادة من هذه المراكز تؤهله لهذا العمل. وهذه هى الطامة الكبرى التى ابتلينا بها فى مجتمعنا المعاصر؛ إذ نسمع آراء شاذة، وتعاليم متشددة، وأفكاراً تدعو إلى الانطواء والتعصب، ورفض الغير، وحمل السلاح ضد المخالفين... وغير ذلك مما يشوه صورة الإسلام، فتنفر غير المسلمين منه، وتدعوهم إلى التكاتف والتحزب ضد كل ما هو إسلامى، لأنه خطر على المجتمع الدولى.

وقد يمارس هذا النوع من الفكر بعض المتخرجين فى الكليات الشرعية لظروف متعددة؛ فقد يكون تحصيله للمواد التى تُدَرَّس فى هذه الكليات قاصرة على الحفظ والترديد، وقد تقصر إمكاناته الفكرية عن إدراك فقه الإسلام، وأهداف الشريعة الإسلامية فى المجتمع، وقد ترغمه بيئته الاجتماعية على توجيه مساره الفكرى إلى الغلو والتشدد، وتطبع حياته بطابع بعيد عن فلسفة الإسلام فى التشريع، وسماحته فى مخاطبة الجماهير.

ولهذا يجب على المهتمين بإعداد الدعاة أن يبينوا المسار الفكرى الذى يجب أن يلتزم به من يمارس الخطاب الدينى؛ إذ عليه أن يدرك أن الإسلام يركز فى تعاليمه وتشريعاته على سلامة الإنسان، وحمايته، وتوجيهه إلى الطريق السليم ليتمتع بما فى الدنيا من طيبات، من غير أن يدمر نفسه، أو يصاب بأذى ينغص عليه حياته، أو يزلزل اطمئنانه واستقراره، وبالتالى يكون عضواً صالحاً يُكَوِّن مع بنى جنسه مجتمعاً قويًّا، قادراً على البناء والتقدم فى سلك الحضارة والازدهار، مما يجعل لديه القدرة على مواجهة عواصف الدهر وأزمات الحياة، ومُهَيَّئاً لدفع من يعتدى عليه، أو يضمر له سوءاً يزلزل أركان حياته.

ومن المبادئ التى توصله إلى هذا الهدف التزامه بما يحفظ عليه النوع، فلا يرتكب من الآثام ما يخلخل التوازن فى الإنتاج البشرى، أو يسبب ضعفه على المستوى البيولوجى، والإدراك العقلى، فيحافظ على سلامة التسلسل النوعى، ويستعمل العقل فى تنظيم شئون حياته، سواء على المستوى الطبيعى، أو فى دائرة القضايا العقلية المتعلقة بحياته كلها، لأن العقل هو قائد النظام الإنسانى، فإذا تعطل أو أهمل عمداً اختلت الموازين، وارتبك وقع الحياة، فتصاب بالجمود، وتفقد بريقها، ويذوب طعمها فى ثنايا المآسى التى تصيب الإنسان، وتحيط

بالمجتمعات؛ فإن أضيف إليها - وغالباً مايكون نتيجة لها - الكسل وعدم العمل، فهى الطامة الكبرى للمجتمع؛ إذ يصاب بالضعف والانحلال، فيقع فريسة للأقوياء، فينهشون لحمه، ويكسرون عظامه.

وعليه فينبغى عليه - أى الممارس للخطاب الدينى - أن يكون حكيماً فى اختيار ما يعرضه من موضوعات دينية، وما يشرحه من توجيهات تشريعية، فلا يعتمد على التراث بغثه وسمينه، بل يختار منه ما يناسب العصر، ويتفق مع متطلبات الحياة، وما يحتاج إليه المسلم - بل الإنسان عامة - لتنظيم حياته، وما يساعده على استخدام زينة الحياة الدنيا من غير أن يلحقه ضرر فى نفسه أو يخالف نصاً قطعى الدلالة، أو يتسبب فى تشويه النظام الاجتماعى، بعيداً عن الأفكار المرتبطة بزمن مضى، والمتعلقة بأحداث لم تعد موجودة، ملتزماً بمنهج التيسير على المسلمين حتى لا ينفروا أو يتشككوا فى صلاحية الإسلام للحياة المعاصرة.

فيجب على الممارس للخطاب الدينى ألا يقف موقف المعارض لأىٍّ من الاتجاهات الفكرية المعاصرة ويتهمها بالكفر إلا إذا انحرف أتباعها عن مبادئ الإسلام، فكفروا بأصل من أصوله، ألا وهى: وحدانية الله، والإيمان بجميع الرسل الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم وعلى رأسهم محمد ﷺ، والإيمان بنصوص القرآن الكريم، والسنة العملية، والحديث المتواتر، فإن تحقق ذلك عند أتباع أى طائفة فلا يصح للداعية أن يرميهم بالكفر؛ لأن ماهم عليه من تعاليم وأفكار ميزهم عن غيرهم من المسلمين، هى مفاهيم للنصوص التى آمن بها المسلمون جميعاً؛ إذ هى تفسيرات وتأويلات لنصوص آمنا بها جميعاً، واختلفنا فى تفسيرها واستنباط الأحكام منها، فلا يجوز أن يحكم على طائفة من طوائف

المسلمين بالكفر، غاية ما يُسْمَح به: التصريح بأن هذا الرأى أو ذاك مخالف لما عليه جمهور المسلمين، أو هذا التأويل وذاك التفسير من الآراء الشاذة فى الفكر الإسلامى، فيمكن أن يوصف صاحبه بالفسق أو الفجور، أو أنه ارتكب برأيه هذا إثماً، سواء كان ذلك الإثم كبيراً أو صغيراً، ولا يخرج الحكم عليه عن هذا الإطار.

وبالإضافة إلى مابيناه سابقاً يجب على الداعية أن يراعى فى موضوعاته — سواء كانت خطبة جمعة، أو درساً، أو مقالة، أو أى صيغة من صيغ الحديث عن التعاليم الإسلامية — المنهج الذى رسمه الله تعالى فى قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فيحاول جاهداً تطبيق ما بيناه فى هذا البحث، حتى يكون لكلامه أثر فى النفوس، فلا يستغلق فهمه على العامة، ولا يمل منه المتخصصون، وليجعل نصب عينيه دائماً تلك المقولة المشهورة: " **لكل مقام مقال** "، كى يتجنب الاتهامات التى تكال للخطاب الدينى، ويقطع الطريق على كل من تسول له نفسه الإساءة إلى الدعاة بأن أحاديثهم أحاديث خرافة، أو أن خطابهم خارج عن العصر، وبعيد عن فهم العامة أو لا يتناسب مع آراء المفكرين والفلاسفة. وعليه أن يستخدم كل وسيلة تساعده على توصيل كلمة الله لأكبر عدد ممكن، بشرط أن يلتزم بما تمليه عليه هذه الوسيلة من صياغة لخطابه، ليعم النفع ويسلم الخطاب من التأثرات السلبية.

ولا يستطيع الالتزام بهذا كله إلا من تخرج فى الكليات الشرعية، وآتاه الله قدرة على فهم أهداف الشريعة الإسلامية، وإدراكاً لفهم فلسفة الإسلام فى قيادة الشعوب على اختلاف عناصرها البيولوجية والبيئية، وتمايز عصورها

الزمنية والحضارية. فمن لم يمتلك هذه القدرة، فلا يجوز له ممارسة الخطاب الدينى حتى لا يضل الناس بفتاوى لا أصل لها فى الشريعة الإسلامية، فإن كان ولابد من قيامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، امتثالا لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]، فلا يجب عليه ذلك إلا فى المسائل المشهورة لدى العامة، كشرب الخمر، والزنا، وترك الصلاة، والسرقة، وغيرها من الأمور التى لا تخفى على عوام الناس، أما ماعدا ذلك فلا يجب عليه التصدى للمخالفين والمفسدين، لأن ضرر خوضه فى هذا المجال دون علم يترتب عليه ضرر يفوق بكثير نفعه، إن كان له نفع إطلاقاً.

فإن كان المرء مثقفاً ثقافة غير إسلامية، فلا يخوض فى المسائل الدينية إلا فى حدود ما اطلع عليه من كتب دينية، أو ما وعته ذاكرته بصورة جيدة من **علماء متخصصين**. ولا ينبغى أن يخوض فيما ليس له به علم بدافع الغيرة على الدين، والحماس فى مجال الدعوة، فقد يترتب على ذلك – وغالباً ما يحدث – أثار تضر بالدعوة أكثر مما تخدمها، وخاصة فيما يتعلق بنظم الحياة الحديثة، بما فيها من تعقيدات حضارية، وما يطفو على سطحها من صور مستحدثة، وأشكال متعددة فى شتى المجالات.

ولهذا يجب على الشباب الذى لم يتخصص فى العلوم الدينية، أن يخدم دينه، ويحمى عقيدته بالتفوق فى مجال تخصصه؛ فإن كان مهندساً، فما يقدمه للإسلام هو إتقانه لعمله، وتفوقه فى مجال الهندسة، حتى لا يحتاج المجتمع الإسلامى إلى طلب مساعدة من غير المسلمين فى هذا الميدان. ومثل ذلك الطبيب، والمحاسب، والاقتصادى، والمهندس الزراعى...و...و... إلخ، فإن قوة المسلمين فى هذه

الميادين تحميهم من الوقوع فى مجال التأثير بالأجانب الذين يستعينون بهم فى هذه المجالات، التى أصبحت حيوية بالنسبة للحياة المعاصرة. فإن أراد بعد ذلك أن يكون له نشاط فى مجال الدعوة إلى الله، فليكن بسلوكه بين العاملين معه، وأخلاقه مع المتعاملين فى حقله، فإن لذلك صدى فى نفوسهم يفوق فى كثير من الأحيان تأثير خطب الوعاظ، ودروس علماء الدين[١].

وجدير بالذكر أننى كتبت فى عام ٢٠٠٨م مقالاً عن ظاهرة التطفل على مجال الدعوة، يستحسن أن أختم به هذا البحث، وإليك نصه:

من يحق له أن يتحدث باسم الإسلام؟

ينفرد الإسلام عن غيره من الأديان بأنه لا يقر الطبقية، فالناس فى المجتمع الإسلامى سواسية فى الحقوق والواجبات، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى، ولا يملك أحد من البشر مقياسا للتقوى؛ لأنها من الأمور التى لا يطلع عليها أحد إلا الله ﷻ، غير أن الحياة لا تسير إلا إذا وُضِعَ كلٌّ فى موضعه طبقاً لإمكاناته وتخصصاته، فلا يمارس المهندس مهنة الطبيب، ولا يتصدى الطبيب للشئون الهندسية، أى أنه لا يقوم أحد بعمل إلا إذا كان قد أتقن – عن طريق التعليم والتدريب – قواعده، وألَمَّ بكل جزئياته، وأحاط بالمعرفة اللازمة لممارسة هذا العمل، وصدق الله إذ يقول:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]

فخوض الإنسان فيما لا يتقنه إهدار للتخصصات، وضياع للجهد والمال، وتخريب لمنظومة الحياة، وبالتالى فهو يؤدى إلى التخبط والبلبلة، وفقدان الثقة فى

(١) راجع كتابنا: الإسلام دين ودنيا صـ ٢٤٩.

مصادر الإنتاج والمعرفة؛ لأن كُلاًّ يعرف كل شيء، فإذا بحثت عن الحقيقة، فهيهات أن تصل إليها، لأنك لا تستطيع أن تفرق بين من يعرفها حقاً، وبين من يدعى أنه يعرفها.

ومن هنا فقد حذر الإسلام من ادعاء المعرفة، ونهى عن الخوض فيما هو مجهول؛ فلا يجوز لأحد - إسلامياً - أن يتصدى لعمل شيء ما، إلا إذا كان متأكداً من الإلمام به، وقادراً على تأديته على أكمل وجه، يقول رسول الله ﷺ: " **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** "[1]، ولا يستطيع أحد التفريق بين ما هو خير وما هو شر، إلا إذا كان عالماً بالموضوع، وملماً به، ومتمكناً من كل ما يتعلق به، بالقدر الذى يؤهله لإتقان ما يقوم به، يقول رسول الله ﷺ: "**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**"[2].

فإذا ساد هذا المعنى فى المجتمع، انتظمت خطواته، وتلاقت أنشطته المختلفة فى منظومته، يكمل بعضها بعضا، فتتلاقح فى نغمات متناسقة، أو تتدافع فى إطار تنافسى للوصول إلى الأصلح، فيأخذ مكانه فى مسيرة التقدم، ويتفاعل مع مثيله فى بناء صرح الحضارة، وتشييد منارة التقدم.

أما إذا خاض كلٌّ فيما لا يعرف وادعى ما ليس له، انزلق المجتمع إلى متاهات لا يعرف المرء فيها طريقاً، ولا يرى منها مخرجاً، ولا يسمع إلا أصواتاً متداخلة، ونغمات متنافرة، وادعاءات ممجوجة، تتقاذفه يميناً وشمالاً، وتصب فى أذنه تفسيرات وتأويلات تقذف به فى مهاوى الشك والقنوط حيناً، وتبعث عنده الأمل فى اليقين أحياناً أخرى. ولهذا ينبغى على صاحب القرار أن يميز

(١) صحيح البخارى جـ ٥ صـ ٢٢٤٠ رقم ٥٦٧٢.

(٢) المعجم الأوسط جـ ١ صـ ٢٧٥ رقم ٨٩٧.

المتخصصين فى الدراسات الإسلامية، بحيث يُعْرَفون للجماهير، فلا يتطفل الجاهلون فى مجال الفتوى الدينية، فَيَضِلُّوا، ولا يتصدر أنصاف العلماء لتدريس العلوم الشرعية، كى تُصان التعاليم الإسلامية من شطحات المفكرين، وتبقى الأحكام بعيدة عن سقطات غير المتخصصين.

كيف يُمَيَّزون ؟

ينقسم العمل فى مجال الدراسات الدينية إلى قسمين:

الأول: الوعظ والإرشاد والفتوى وإمامة الصلاة، وتعليم الناس مبادئ الدين وأحكامه.

الثانى: البحوث الأكاديمية التى يهتم الباحثون فيها. بمنطوق النصوص ومفهومها، وصحة الرواية وفسادها، كما يركزون على استنباط الأحكام، مع مراعاة طبيعة العصر- هكذا يجب أن يكون — ومقتضياته، مما يلبى ضرورات الحياة فى إطار مجتمع دولى، يركض حثيثاً على طريق العلم والتكنولوجيا، ويسرع الخطى فى ساحات التقدم والازدهار.

ومن الأمور البدهية أن لكل قسم رجاله، من حيث التأهيل والتدريب، والإمكانات، فمن يعمل فى مجال القسم الأول ينبغى أن يؤهل فى مؤسسات علمية خاصة، كالأزهر وما يماثله، بشرط أن تكون مناهج التأهيل فيه شاملة لكل ما يحتاج إليه الداعية من علوم وثقافة وتدريب على وسائل العصر فى مخاطبة الجماهير، ومواجهة مشاكل المجتمعات المعاصرة. ولا يتحقق الهدف كاملاً إلا إذا كان اختيار العناصر المنفذة لبرنامج التأهيل على وعى تام بمتطلبات العصر، والاحتياجات اللازمة لمواجهة التيارات الفكرية التى تموج بها المجتمعات،

سواء كانت مجتمعات إسلامية أو غير إسلامية. بالإضافة إلى مراعاة الدقة فى اختيار المدرسين لهذا المنهج، حتى لا يخرج إلى الساحة عناصر عاجزة عن الاتصال بالجماهير بسبب قصورهم الذاتى، أو خلل فى المنهج، أو عدم وضوح الرؤية عند من يتصدى لتأهيلهم.

ولكى لا يدخل الساحة مُدَّعون، يبلبلون الأفكار، ويخدعون الجماهير، ينبغى أن يكون للدعاة زى خاص بهم لا يشاركهم فيه أحد، حمايةً لهذا المجال من الانتهازيين، وصوناً لمبادئ الإسلام من أن يشوهها جاهل، أو يشيع الفتنة فى المجتمع حقود، أو يتطاول عدو على مبادئ الإسلام، فيعلمها لشبابنا بأسلوب يبعدهم عن روح الإسلام الصافية الخلاقة المبدعة، فيدمر حياتهم بالسلبية والإتكالية، والاستغراق فى عالم الأساطير والخرافات.

وليس هذا الاقتراح بدعاً من القول، بل هو قائم على أساس منطقى، وله مبررات عقلية؛ ذلك أن دواعى أمن الدولة اقتضت أن يرتدى أفراد القوات المسلحة ورجال الشرطة زياً خاصاً بهم، حتى لا يدخل فيهم من ليس منهم، فيرتكب مخالفات تضر بأمن الدولة، أو يعتدى على أمن المواطنين وحقوقهم. كذلك الحال بالنسبة لأهم جانب يؤثر فى حياة الناس، ألا وهو الدين؛ إذ لو فسدت الثقافة الدينية، لاختلت حياة الناس، واضطربت أحوالهم، وضاع الاستقرار النفسى والأمن الروحى، مما يؤثر على إنتاجهم، ويعوق مسيرتهم نحو التقدم والازدهار، فتأمين منابع الثقافة الدينية أمر ضرورى، بل هو لا يقل أهمية عن حماية الدولة من الأعداء، أوالسهر على أمن المواطنين من المخربين والمنحرفين، ولهذا ينبغى على صاحب القرار ألا يتوانى فى إصدار قرار يحدد الزى الخاص بالدعاة والأئمة وخطباء المساجد، بحيث يُجَرَّم من يتعدى عليهم، فيتزيى بزيهم.

ألا يؤدى هذا إلى تكوين طبقة، تَمَيَّزَ الإسلام عن غيره بعدم وجودها، ألا وهى طبقة رجال الدين؟

لا، لأن مهمتها تختلف عن مثيلاتها فى الأديان الأخرى، فالمنتسبون إليها لا يجوز لهم التشريع كما يُشَرِّع أمثالهم فى المجتمعات غير الإسلامية، وليسوا مقدسين كما يقدس أتباع الأديان الأخرى رجال الدين عندهم. فالوعاظ والأئمة فى الإسلام لا يختلفون عن أى مسلم آخر فى المجتمع، فلا يفضلون على غيرهم إلا بالمقياس الدينى العام، ألا وهو التقوى، فقد يكون هناك مسلم لا يشتغل بالثقافة الدينية، وتقواه ترفعه إلى درجة أعلى من درجة الإمام أو الواعظ. إذن، فتميزهم بزى خاص لا يعطيهم حصانة، ولا يرفع درجاتهم بين المسلمين إلى مرتبة القداسة، وليس لهم فى المجتمع إلا احترام الناس لهم باعتبارهم خداماً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما يُكِنُّ التلميذ الاحترام لأستاذه، أيًّا كانت المادة التى يقوم الأستاذ بتدريسها للتلميذ.

وكما يمنع غير المتخصص فى الدراسات الإسلامية من ارتداء زىِّ الأئمة والوعاظ ومن يتصدرون لتثقيف المسلمين وتفقيههم فى الدين، كذلك لا يجوز للمتخصصين القيام بأعمالهم، إلا إذا ارتدوا الزِّىّ الذى يُخَصَّص لهم، مثلهم فى ذلك مثل رجال القوات المسحة وأفراد الشرطة.

وليس معنى هذا أن للإسلام زيًّا خاصا، يطلق عليه: " الزِّىّ الإسلامى "، كما يدعى بعض الذين أقحموا أنفسهم فى مجال التحدث باسْم الإسلام، فالرسول ﷺ لبس جميع أردية عصره، حتى الجبة الشامية، فيحكى أنها كانت ضيقة عند المعصم، فكان الرسول ﷺ يخلع يده اليمنى عند الوضوء، فيغسلها، ثم يلبسها، وبعد ذلك يخلع اليسرى، فيغسلها، ثم يلبسها. وعدم تخصيص زىّ

للمسلمين يدل على أن الإسلام دين عالمى ؟ إذ تتفق عالميته مع عدم تخصيص زى للمؤمنين به، ذلك أن طبيعة الزى – وشكله – تتعلق بالطقس، فما يرتديه المرء فى المناطق الحارة لا يمكن لسكان المناطق الباردة ارتداؤه، وإلا تجمدوا من البرد. فلو سلمنا- جدلاً- أن الجلباب الأبيض " القصير " هو الزِّىّ الإسلامى، وألزمنا كل من يعتنق الإسلام بارتدائه، لانحصرت دائرة المؤمنين به فى سكان المناطق الحارة، لأن تعاليمه- على الأقل فيما يتعلق بالزى- تلائمهم وحدهم، ولا تتمشى مع متطلبات طقس المناطق الباردة، إذ لو اعتنق أحد سكان هذه المناطق الإسلام، لكان لزاماً عليه- بناء على رأى من يخص الإسلام بزىّ معين – أن يرتدى هذا الزىّ، وهو الجلباب الأبيض القصير، وفى هذه الحالة سوف يموت من شدة البرد بعد فترة قصيرة، لا تتعدى بضع ساعات. وبذلك لا يكون للإسلام مكان فى هذه المناطق؟ لأن من يلتزم بتعاليمه فى هذا المجال، سوف يموت، وبالتالى لا يجرؤ أحد...حتى على التفكير فى اعتناقه. ويترتب على هذا أن يقتنع من يسمع هؤلاء المنادين بتحديد زىّ "خاص بالإسلام"، أن هذا الدين لا يصلح إلا لسكان المناطق التى يتلاءم طقسها مع هذا الزى .

ألا يعد هذا متناقضاً مع الدعوة إلى تحديد زىّ خاص لمن يقومون. بمهمة التثقيف الدينى، كالأئمة، والوعاظ، وخطباء المساجد ؟

لا، لأن هناك فرقاً كبيراً بين الاتفاق على تحديد زىّ خاص- أيًّا كان شكله ولونه وهيئته- لمن يعملون فى حقل الدعوة الإسلامية، وبين أن يُدَّعَى أن للإسلام زيًّا خاصاً به، لأن المجتمع فى الحالة الأولى ليس مُلْزَماً بنوع معين من أشكال الملابس، فهو حر فى اختياره طبقاً لظروف الزمان والمكان، بخلاف الوضع فيما لو اعتبره شكلاً مقدساً لا يحيد عنه. كذلك يمكن تغييره فى أى

وقت إن اقتضت الظروف ذلك، بخلاف ما لو كان إلزاماً دينياً، فلا يجوز تغييره، وإلا ارتكب إثما يعاقب عليه.

هل يقبل الأئمة والوعاظ وخطباء المساجد ارتداء هذا الزى عن طيب خاطر، خاصة وأن الاتجاه العام يمكن أن يوجه إلى اختيار ما هو معروف لرجال الدين، وهو العمامة والْجُبَّة (أو ما يطلق عليه "الكاكولا")، وهو لبس مُعَوِّق للحركة وسط هذا التدافع فى الشارع المزدحم، وفى وسائل المواصلات الراهنة، التى يشترط فيمن يستخدمها أن يكون سريع الحركة، بحيث لا تقيدها جُبَّة، ولا يحد من انطلاقها عمامة فوق الرأس؟؟؟

أعتقد أنهم سيرحبون به لو اقتصر على طائفتهم، فذلك سيسهل عليهم كثيراً مما يمكن أن يعانى منه من يرتدى مثل هذا اللباس؛ فالمساعدة ستُقَدَّم لهم فى كل مكان، وستزلل لهم الصعاب أينما حلوا، لأن الناس سينظرون إليهم نظرة إجلال واحترام، مع العلم بأنه ليس من اللازم أن يرتدوا هذا الزى فى كل الأوقات، بل يكفى أن يرتدوه أثناء تأدية عملهم، وما عدا ذلك فهم أحرار فيما يرتدونه.

لن يتحقق تجديد الخطاب الدينى بعقد المؤتمرات، وتكوين اللجان، وإصدار البيانات والوثائق، لأن حصيلة ذلك مآلها التسجيل فى نشرات، أو إعلانها فى وسائل الإعلام، وكل ذلك يمكن أن يندرج تحت مصطلح "**العشوائية**" أو يسمى "**دعاية إعلامية**"، إلا إذا وضعت الأفكار والتصورات التى تخرج من هذه اللقاءات فى برنامج محدد، وخطط واضحة للتطبيق، حتى يرى المرء أثرها الإيجابى على أرض الواقع، ممثلاً فى تهذيب الفرد، وتقويم سلوكه، مما يؤدى إلى صلابة بنيان المجتمع، بالإضافة إلى تكوين ثقافة عامة تفرز إبداعاً وابتكاراً، وتنتج تسامحاً مع النفس، وقبولاً للغير يقضى على التعصب، ويوئد الغضب والإرهاب فى

مهده، فيعيش المجتمع فى أمن وسلام، فى ظل التعاطف والتعاون، ومساعدة الضعفاء والمساكين.

ولن نرى ذلك واضحاً إلا بوضع مناهج دراسية هادفة، وبيان شامل لأساليب الدعوة كما رسمها القرآن الكريم، وإحياء لثقافة الحوار من الآخر، وقبول ما عنده من إيجابيات، مع توضيح للأساليب المتنوعة التى توصل هذا كله إلى المتلقى، حتى يعيها ويلتزم به فى جميع أنشطة حياته. فإن أخلص القائمون على وضع هذا المنهج وتطبيقه - كما بيناه سابقاً فى هذا البحث - فسوف يتحقق تجديد الخطاب الدينى على الوجه الأكمل. ولا ننسى عنصر الاختيار الجيد لمن يقوم بهذا العمل - سواء كان تخطيطاً أو تنفيذاً، وحماية حياتهم ماديًّا بالشكل الكافى.

[أضع هذا البحث بين يدى المطالبين والمهتمين بتجديد الخطاب الدينى على كل المستويات، من أعلى القمة إلى أسفلها، آملاً أن يستفيدوا منه، فيضموه إلى أفكارهم، حتى نصل إلى الصورة التى نأملها فى هذا المجال]

أ. د/ محمد شامة

openkanal.com

محتويات الكتاب

الموضوع الصفحة

مقدمة.. ٧

ركائز التقدم والرقى... ٩

التعليم... ١٠

الثقافة... ١١

الحرية... ١١

الدين ٢٥

تجديد الخطاب الدينى... ١٦

منهج التجديد (المنهج الدراسى: فى المدارس، والمعاهد الأزهرية،

وجامعة الأزهر... ١٩

مواجهة عشوائية الخطاب الدينى................................. ٢٩

مناهج الخطاب الدينى.. ٣٣

الحكمة... ٣٣

الموعظة الحسنة... ٣٩

المجادلة بالتى هى أحسن.. ٤٦

التخصصات ٥٣

مواد تأهيل الدعاة فى مجال الخطاب الدينى........................ ٥٦

obeikandl.com

وسائل الدعوة

مقدمة ٦٤
الوسائل الفردية:
خطابة ٦٨
درس ٧٠
مناظرة وحوار ٧٦
حوار الحضارات ٩٤
محاضرة ١١٣
كتابة:
رسالة ١١٥
مقال ١١٦
بحث ١١٨
كتاب ١١٩
المؤسسات والمراكز العلمية:
مساجد ١٢٢
كتاتيب ١٢٤
مكتبات ١٢٦
مذياع ١٢٨
شبكة المعلومات الدولية ١٢٩
خاتمة ١٣٥
محتويات الكتاب ١٤٨

* * *

obeikandl.com

الإنتاج العلمى لـ أ . د/ محمد شامة

أولا: الكتب مبيناً تاريخ الطبعة الأولى فقط:

١. بين الإسلام والمسيحية (تحقيق وتقديم وتعليق لكتاب أبى عَبِيدَة الخزرجى المتوفى ٥٤٨هـ). مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧٢م

٢. بحوث فى علم الأديان المقارن. مطابع المدنى، القاهرة ١٩٧٢م

٣. الإسلام قوة الغد العالمية (مترجم من اللغة الألمانية). مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧٤م

٤. الخطر الشيوعى فى بلاد الإسلام. مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧٨م

٥. الإسلام فى الفكر الأوربى (عرض وتحليل لكتاب صدر باللغة الألمانية تحت عنوان: (الإسلام قوة عالمية متحركة). مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٠م

٦. أثر البيئة فى ظهور القاديانية. مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٠م

٧. الإسلام كما ينبغى أن نعرفه. مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٤م

٨. الإسلام دين ودنيا. أبوللو للتوزيع والنشر، القاهرة ١٩٨٨م

٩. فى رحاب القرآن. أبوللو للتوزيع والنشر، القاهرة ١٩٨٨م

١٠. الإسلام طهارة ونقاء. مكتبة شامة، القاهرة ١٩٩١م

١١. حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (مترجم لكتاب صدر باللغة الألمانية تحت عنوان: (الثورة تطرد أبناءها). مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨١م

١٢. محاضرات فى علم الخطابة النظرية والعملية (بالاشتراك مع آخرين). الدار الإسلامية للطباعة والنشر، المنصورة ١٩٨٤م

obeikandl.com

١٣. الحسد فى القرآن الكريم بين الحقيقة والأسطورة. مكتبة شامة ١٩٩٢م

١٤. عقائد وتيارات فكرية معاصرة (بالاشتراك مع آخرين). دار قطرى بن الفجاءة، الدوحة ١٩٩٣م

١٥. التخلف فى العالم الإسلامى بين الداء والدواء. مطبعة الإسكندرية، القاهرة ١٩٩٦م

١٦. الإسلام إصلاح وتهذيب – رؤية معاصرة للحدود والتعزير. مطبعة الإسكندرية، القاهرة ١٩٩٩م

١٧. العقيدة – مفهومها وتطورها. مطبعة إسكندرية، القاهرة ١٩٩٩م

١٨. الشباب مرآة المجتمع. مكتبة وهبة، القاهرة ٢٠٠٥م

١٩. لا..... لتطوير الخطاب الدينى. مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م

٢٠. حوار الأديان... ودور الدعوة الإسلامية فى مواجهة التحديات. مكتبة وهبة، القاهرة ٢٠٠٧م

٢١. فى علم الأديان – مفهوم العقيدة وتطورها. مكتبة وهبة، القاهرة ٢٠٠٨م

٢٢. التنوير فى الفكر الإسلامى. مكتبة وهبة، القاهرة ٢٠٠٩م

٢٣. النفاق جرثومة التخلف والانحطاط. مكتبة وهبة، القاهرة ٢٠١٠م

٢٤. الإسلام فى أروقة المستشرقين.مكتبة الإيمان، القاهرة ٢٠١٢م

٢٥. مفهوم الأسطورة فى القرآن الكريم. مكتبة وهبة ومكتبة الإيمان ٢٠١٤م

٢٦. الخطاب الدينى المفترى عليه.م. وهبة، م. الإيمان ٢٠١٤م

٢٧. تجديد الخطاب الدينى بين العشوائية والمنهجية. م. وهبة، م. الإيمان ٢٠١٦م

٢٨. فكر وثقافة – تحت الطبع

obeikandi.com

٢٩. Razi als Quranausleger und Philosoph. Berlin ١٩٦٧

٣٠. Die Stellung der Frau im sunnitischen Islam. Berlin ١٩٦٨

٣١. Rituelle Handlungen im Islam. Kairo ١٩٩٦

٣٢. Zur Fragen der Frauen im Islam. ١٩٩٦

٣٣. Philiosophie der Ehe im Islam.Kairo ١٩٩٩

٣٤. Der Islam wie wir ihn verstehen sollen. Kairo ٢٠٠٥

٣٥. Ad-DaẎwah (Einladender Aufruf zum Islam). Kairo ٢٠٠٨

ثانياً: أكثر من مائة بحث قدمت لمؤتمرات وندوات دولية وإقليمية، ونشرت فى مجلات ودورات علمية متخصصة.

* * *

obeikandl.com